حافظ

الشيوعية في الاسلام

A.U.B. LIBRARY

تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

335
H131sA
C.1

عباس حافظ

يقدم

الشيوعية في الإسلام

الطبعة الثالثة

١٩٥٥

الناشر : مكتبة العرب

٢٨ شارع الفجالة ت ٥٦٠٢٥ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

ليس هذا الكتاب أول شيء كتبته فى بابه .. وأرجو أن يكون حافزاً إلى إخوة له فى ميدانه ورحابه .. ولكنه جاء بعد نقل كتابين فى معانيه ومطارحه وأسبابه ، فقد نقلت من قبله « المعبود الذى هوى » وهو دراسات لنفر من أعلام الكتاب الغربيين ، بعد الردة عن الشيوعية ، والخروج على الشيوعيين ، وأسطورة « المزرعة » ، أو « الحيوانات الثائرة » التى أجراها المؤلف على ألسنة البهائم ، وحاكى فيها كتاب « كليلة ودمنة » فى أسلوبه الخيالى ، وروح القصة فيه والرواية ، ورسم خلاله شخصيات البلاشفة الأولين .

ولست فى هذه الصناعة بكاسب ، وما أنا فى سوقها على ربح ، لأن هذا الطراز منها يخلو من الإغراء ، ولا يحتمل التهاويل ، والصور ، والرسم ، والطلاء ؛ ولكنى قارىء يحب أن يكون له فيما يقرأ شركاء ، وكاتب يعرض ألواناً من الأفكار والآراء ، فى غير تحامل على مذهب ، ولا محاباة لسواه عليه ، وإنما فى قصد بينهما ، لمجرد الإيضاح والتبيين .

وقد نفدت الطبعة الأولى لقلتها لا لكثرتها ، وزهادتها لا لباهظ قيمتها ، فرأيت أن أعيد الطبع لمحدود كميتها ، مستجيباً لمن طلب ، نازلا على مشيئة الذين سألونى أين الكتاب ، فقد رأينا بعض الناس به معجبين .

ورأيت أن أزيده فصلا فى صدر صفحاته ، ليشمل الكتاب

موضوعه من مختلف جهاته ، فتناولت « الشيوعية فى الإسلام » من ناحية استغناء الشرق العربى به عن الشيوعية المحدثة وأخيلتها ، إذا عرف أهله لعقيدتهم الدينية قدرها ومكانتها ؛ ولعلى مختلف فيها مع الذين لا يزالون ينادون بأن الإسلام يناهضها ، فلا مخافة على المسلمين من دعاتها ، والذين ينزعون إلى التهوين من الخطر ، ويرددون قول العامة « إن الإسلام بخير » فقد ذهبت إلى قيام الشيوعية فيه ، وإن كانت فى تعاليمه وأهدافه ومراميه ، شيوعية عملية عاقلة ، ومبادىء رشيدة ممكنة ، وحنيفية ميسرة سهلة ، وأن فى مثلها الغناء عن هذه الشيوعية وحلها ، فلا ينخدع الناس بصورها المجملة ، وأخليتها الزاهية الألوان لتأخذ أعين العمال والكادحين ، والمعذبين فى الأرض والمكدودين ، وتختلب ألباب الممتحنين بصنوف الفاقة وضروب الحرمان ، وإن كانت فى جوهرها سراباً خداعا ، وصوراً مصنوعة بريشة رسام سابح الخاطر مع الخيال .

وقد وجهت النداء فى هذه الرسالة إلى علماء الدين ، وكبار سدنته وحماته ، ويقينى أن النداء بالغ محله ، وأن الدعوة واجدة الناهضين لها والمستجيبين .

أكتوبر سنة ١٩٥٤

عباس حافظ

مقدمة

لا شك فى أننا نعيش اليوم فى عهد خطر ، وعصر رهيب ؛ ولكنه على خطره ورهبته تتفتح له الفرص ، وتتهيأ له الوسائل لسد كل ثغرة ، وإصلاح كل خلل ، وعلاج كل نقص ، وتوفير إيمان جديد يرسل ضياءه الباهر ، ليبدد هذا الظلام البهيم الذى نتخبط فيه .

إن العالم اليوم يقف عند مفترق طريقين ، ومن المتعين على الناس فيه الاختيار ، بين المبادىء والنظريات المحدثة ، وبين الإيمان القوى المكين .

لقد فتر إيماننا فى هذا العصر الملحد ، وصرفتنا شهواته الملحة الجارفة عن العقيدة ، وتناهبتنا الحياة ، حتى كدنا ننسى الآخرة والله ، فلم تلبث الشيوعية أن تسللت ، حاملة صوراً خداعة ، ورسوما خلابة ، ومتحدثة عن حلم بديع .

ولا نجاة للناس من هذا الوسواس الجديد الذى يسكب فى الأسماع أشهى الهمسات ، وأبدع العبارات ، غير العودة إلى إيمان قوى متين .

وليس يكفى أن نمنع النشاط الخفى ، ونصادر الكتب الهدامة ، ونكافح القوات المتسللة تحت الظلام ، لأنها تنتفع بالمنع ، وتزداد نشاطاً بالمصادرة ، ولا تفتأ تتحايل لتعيش .

هذه فرصة لها لتتجدد كلما فترت ، وتعاود الظهور إذا طال عليها الخفاء .

ولسنا نحسب الساسة والحكام هم أقدر الناس على مقاومتها ، لأنها

لا تدعى أن لها بالسياسة صلة، ولا تزعم أنها تطلب الحكم، وإنما أقوى الكفاح حيالها يجب أن يأتى من الدين وسدنته، والايمان والحراس الحفاظ عليه.

وقد يتيسر للساسة الحد من نشاطها، وحصر نطاقها بتقرير أحكم المناهج فى التعليم، وأسلم البرامج فى التربية، ووقاية مصلحة الدولة بمختلف المراشد والوسائل والضمانات.

ولكن الرد الحاسم عليها هو أن نعود إلى الحياة مؤمنين، وهو رد طويل المدى، ولكنه فى النهاية قاطع، كفيل بالقضاء على هذه الوثنية المحدثة.

ولا يكفى فى محاربتها استعداء الجدل والمنطق والحجة وحدها، بل لا معدى عن القوة «الروحية»، قوة الإيمان العميق، وسلطان اليقين، ليكون الأثر بالغاً، ومسرى الحجة سريعاً فعالا، وكهرباء الحماسة متغلغلة فى الصميم.

نريد علماء عصريين أوتوا الدراسة المتعمقة، والمنطق الجزل، والأسلوب النفاذ إلى الأفئدة.

نريد أن نواجه هذا التحدى الصارخ...

ولتكن مواجهتنا له صارخة مثله، بل أشد قوة، وأنفذ أسلوباً، وأمضى سلاحا، وأكفل بالفوز المبين.

ولا غناء لنا أيضاً عن وسائل ثلاث: الدعاية الناشطة اليقظى الساهرة، والتنظيم التام المستكمل، والعمل الايجابى الصحيح، أو «الروحى»، الذى يبلغ الذروة، ويوفى على حدود اليقين.

أغسطس سنة ١٩٥٤

عباسى حافظ

الفصل الأول

الشيوعية فى الاسلام

نحن اليوم على عتبة عصر جديد من عصور البشر ، وعهد لا يزال وليداً ، جاءت به الثورة الصناعية التى اعتمدت على اكتشاف البخار والكهرباء والأثير ، ونفخت فيه الحرب العالمية — التى نرجو بعد وقعتها مرتين أن لا تكون ثالثة — فزحمت الدنيا بالعالقة والجبابرة ، الذين ينزع الشر بهم إلى إيقاد نيرانها ، وإعداد أتونها ، وإن زعموا أنهم الحراس على السلام وطلابه ، والعاملون على إقراره فى نصابه .

وقد عرفنا من التاريخ أن الحياة الإنسانية عرضة لمد وجزر فكريين يتناوبانها صعوداً وهبوطاً ، على فترات سكون عارضة ، وأدوار هدوء وجمود معينة . وإذا نحن تدبرنا ما يبدو فى عصرنا هذا وزماننا أدركنا أن القوى الفكرية التى تؤثر فى سير الحياة البشرية هى اليوم متأرجحة بين المد والجزر ، وهى حالة قد تعقبها فترة جمود طويلة ، أو قد يرتفع فيها المد بدافع فكرة جديدة فتستفيض فى العالم موجة فكرية سامية متصاعدة كالإسلام حين انبعث فغمر موجه العالم بأسره .

أما المسيحية فلعلها تلوح اليوم باعتبارها قوة من هذا النوع منحسرة متراجعة كما ينحسر المد ويتراجع مدبراً ، بعد عهد ارتفع فيه مدها فى الغرب ، وبلغ ذروة صعدته ، حتى كان القرن التاسع عشر ، فغلب عليها عامل جديد ، وهو الاستعمار ، حين اتجه الغرب شرقا وراء الطمع فى أفق جديد ، والسيادة على أقوام آخرين .

وقد رأينا هذا الاستعمار المادى النهم الشره ، يحاول اليوم أن يصلب طوله ، ويتحامل على قدميه ، فى وسط هذه الصيحات المدوية من حوله ، الناقمة منه ، الدائبة على إزعاجه ، لكى يستطيع الصارخون الخلاص منه نجياً ، والفكاك من أصفاده الحديدية آمنين .

ولكن الاستعمار لا يزال يتلكأ ويقاوم ، لأنه يأبى إلا أن يبقى وإن وجد نفسه موزع القوات ، بين مناهضة القومية فى الأقطار التى بدأت تشعر بكرامتها ، وتكافح للظفر بحريتها ، وتجاهد لكى تعيش كريمة على نفسها وعلى الناس ، وبين محاربة استعمار جديد ، لا يتوسل فى المعركة بمعقبات الثورة الصناعية ونتائجها ، ولا بالطاقة الذرية وما قد تؤتى ثمراتها ، ولكنه يتوسل أيضاً بالفكرة ، ويستعين بالخيال ، ويتحدث إلى العاطفة ، ويستغل الألم والشظف ، والجهل ، والمرض والحرمان .

إن الشيوعية هى بلا شك هذا الاستعمار الجديد ، أو هذه القوة الحديثة الضخمة التى تتحدى الاستعمار القديم ، لتسلب منه مكانه ، وتقضى على سلطانه ، وتطمع فى التوسع والترامى والشمول .

ومن يدرى .. فلعل « هتلر » كان ختام عهد الدولة الوطنية المعتمدة على الصناعة والنار والحديد ، لكى يظهر دور مدّ جديد ، مدفكرى ضخم ، يغمر العالم كله ، ويقضى على هذين الاستعمارين المختلفين معاً ، ويأتى بروح جديدة ، وفلسفة مستحدثة ، تدمر الفلسفة الشيوعية القائمة ، وتجلب إلى الدنيا الشيوعية الأخرى التى ينطوى الإسلام عليها ، أو روح الإسلام الذى ينطوى على الشيوعية ويغنى عنها كل الغناء .

نحن فى عصر جديد ، عصر أضفى توالد القوى المادية والنظريات الحديثة فيه على الصلات بين الدول والشعوب أهمية لم تكن لها ، وشأناً لا عهد للناس به ، وأصبح رأى دولة فى سياسة دولة أخرى أخطر من قبل عواقب ، وأشد نتائج ، وأرهب مؤثرات ، وقد تكون بعض العوامل فى تقديرها تقليدية ، أو شخصية ، أو فكرية ، كسقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ .

وقد جاء الاتحاد السوفييتى كعامل فكرى فى هذا الصراع الدولى الجديد ، لأنه يزعم صراحة أن له حق الطاعة والولاء عند دهماء خصومه كما له هذا الحق عند أفراده والمؤتمرين به .

وقد تبين أن المفكر الذى يحاول تقدير العوامل التى تكمن خلف سياسة الدولة البريطانية واتجاهاتها ، إنما يعتمد فى التقدير على عوامل تقليدية ، ويستند إلى جملة ما قيل عن الخلق البريطانى والعقلية الإنجليزية ولعله ذاكر معركة « واترلو » التى لم يتوات للانجليز فيها النصر ، إلا لأنهم لعبوا فيها كما كانوا فى جامعة « ايتون » يلعبون ، وتأثرت نفوسهم بالروح الرياضية التى تغلغلت منهم فى الطباع والتكوين . أو قد يذكر ما قاله نابليون عنهم من أنهم « شعب من التجار والبائعين » ، أو قد يأخذهم على اعتبارهم قوما مثاليين ، خياليين ، يذهبون إلى الحرب من أجل قصاصة من الورق يسمونها « القانون » ، وقد يعد كل ما عندهم فى باب الطباع والأخلاق مجرد « جشع ودهاء ونفاق وتدليس » أو لعله ذاهب فى تقديره إلى أنهم شعب بارد الطبع ، ولكنه إذا استثير إلى القتال ، اندفع إليه ، وانغمس فى حمأته ، وخسر فى كل معركة من

معاركه إلا الأخيرة الحاسمة .

أما الروسى العادى فقد علموه أن يعتقد أن بريطانيا إنما تحكمها اليوم عصابة من « المحتكرين » يرأسها « تشرشل » ، وتنادى بالحرب والقتال ، بينما يريد شعبها السلام ، ويبغى مع الروس الصداقة والمودة أما عن أهداف الاتحاد السوفيتى ذاته فلم يعلموه البحث فيها بتاتاً ، أو مناقشتها على الملأ ، أو تمحيصها على رءوس الأشهاد .

ولكن مهما يذهب الباحث فى أهداف بريطانيا وجوهر سياستها مذاهب مختلفة ، فقد ينتهى به المطاف إلى القول بأنها تقوم على إملاء الاعتبارات الحربية والجغرافية ، لاعلى شىء من الفلسفة ، ولا على شىء من الرغبة فى دعم الحقوق الأساسية للانسان .

وهذا هوما نراه أكثر الأحيان مترددآ على أفواه الإنجليز أنفسهم وفى بحوثهم ، فلا يكفون عن الكلام فى « الاستراتيجية » ، ولا يفتأون يزنون الأشياء بالميزان الجغرافى ، كأنهم « المساحون السياسيون » الموكلون بتقسيم الأرض خرائط ومصورات ؟

ولم تقع الحرب فيما مضى ، وتحدث دمارها فى العالم وآثارها ، إلا بسبب الحيرة فى فهم الإنجليز .

وهذه الحيرة ذاتها هى التى دفعت بأمريكا وغيرها من الحلفاء إلى عقد ميثاق بينها بعد الحرب . ومحاولة توحيد أوربا الغربية اقتصادياً واستقرارها ، وكانت فى السنين الأولى من الحرب الثانية على شفا التمزيق والانهيار ، بل إن هذه الحيرة ذاتها هى التى أدت فى شهر يونيه عام ١٩٤٩

إلى التراضى على مسألتى برلين وألمانيا، وبذلك انتهت أخطر فترة مرت على الحصار.

ولعل أدق ما يواجهه الباحث عند تقدير الاتجاهات والدوافع والتيارات ، هو البحث عن سر رجل واحد ، وتحليل نفسيته ، وهو « هتلر » . فقد حاول ما حاوله غيره فى التاريخ ، ونعنى به رسم خريطة الرحلة التى يعتزم القيام بها ، وتقدير الحطام البشرى والمادى الذى سوف يتركه فى أثر سفينته وسط الخضم الزاخر العباب . ولكن الباحث فى كتاب « كفاحى » سيحار حتما فى محاولة الاهتداء إلى تعليل لطبيعة رسالته ، وسر هدفه وغايته ، إذا لم يرقه أن يردها إلى « جنون العظمة » ... أو « عظمة » الجنون .

ولكن ذلك كله لن يواجه الباحث فى أمر روسيا واتحادها السوفييتى ، فقد رأى فلاسفتها يحللون أهدافها أدق التحليل ويشرحون مذهبها الفكرى أوفى الشرح . وذهب فريق من أصحاب الرأى إلى أن الاعتبارات التاريخية أو الشخصية التى أسلفنا ذكرها كان لها أثر كبير فى هذا الاتجاه ، وإن اتخذت وجوهاً مستعارة ، وتنكرت أعجب التنكر . وجاء ستالين نفسه فأعلن أن كل شبه بين استعماره ، وبين الاستعمار الروسى القديم هو محض اتفاق ، ومجرد مصادفة ، وحين قارنه « إميل لدوفيج » فى حديث له معه ببطرس الأكبر ، قال إن الرسالة التى وهب لها حياته ، ليست تقوية أية دولة وطنية ، ولكنها تقوية دولة اشتراكية ، أو بمعنى آخر دولة .. دولية !. » .

وقد وصف ستالين فى حياته بأنه طاغية الطغاة ، فى مفرط قسوته ،

وبالغ عناده ، حتى لم يكن ليقف فى سبيله قانون ، ولا تنتهى مطامعه عند غاية ، بل إنه ليخفى أعمـــاله وراء رداء رهيب ، ينسجه من دوافع التاريخ .

ولـكن لا يمكن أن يصدق العقل أن هذا الذى قضى ستالين العمر فى تدوينه خلال جهاد مرير ، وصراع شاق لم يأت عن عقيدة راسخة فى نفسه ، أو عن عقيدة ليست كما صورها فى كتبه ، ورسم معالمها فى تواليفه ، ومعنى هذا إذا صح أن الفـكرة أسمى من المفـكر ، وأن الرأى أعلى شأنا من صاحبه .

لقد أقام الروس سياستهم الدولية إذن على أساس فلسفى ، أو على قاعدة مذهب جديد ، لا يقتصر أمره عـلى الدولة وحدها ، ولا على تسربه إلى دول أخرى ، ولـكنه يريد أن يعم الأرض ، ويشغل بال الدنيا ، وينتقل إلى الأجيال الخالفة ، وهذا هو سر خطره ، وموضع الاهتمام العام به .

ولـكنه ليس ديناً ، إلا إذا نظرت إليه من الناحية السلبية المجردة لأنه يلغى الأديان جميعاً ، ويعتمد على المادة ، ويرد إلى تاريخها أحداث الحضارة وتسلسلها ، ويجعل الفرد بكل قواه وشخصيته أداة طيعة للدولة ، ويسخره لها تسخيراً ، وإن قضى بذلك على إرادته وحريته وغريزته .

ولن يقضى على هذا المذهب الجديد إلا دين جديد ، لا يعتمد على القوة المادية فحسب ، ولـكنه يركن كذلك إلى روحه الملائمة لطبيعة البشر ، « وفردية » الناس ، والعمل الصالح فى هذه الدنيا ، وانتظار

الأجر الحسن فى الآخرة ، لأن الحياة فى هذا الكوكب المنطفىء لا تتسع لإيتاء كل فرد كامل حقه ، وإعطاء كل امرىء جزاء مواهبه ، ونصيبه المغنى عن ألم الحرمان .

وليس أوفى من روح الاسلام وجوهر تعاليمه ديناً جديداً ينهض لمحاربة هذا الالحاد الجديد .

ومن خطل الرأى أن يقال فى العالم العربى إنه لا خطر على الناس من الشيوعية ، لأن الإسلام من شرها عاصم ، والشرق الإسلامى لن يكون لها مرتعاً ، فإن الشيوعية لن تجد مرتعاً أخصب منه ، ولا مجالا أفسح سبيلا ، إذا توانى القادة فيه عن الإصلاح ، ولم ينهض الهداة فيه والحكام إلى علاج الاضطراب الاجتماعى بين أهله سراعا مبادرين لأن الشيوعية دائبة على استغلال هذا الاضطراب ليظل أمر الناس فيه مريجاً ، وينهض فى ربوعه بعضهم على بعض متواثبين .

ولكن الحق إن يقال إن الاسلام لا يعصم من الشيوعية وخطرها إلا بالقدر الذى يشمله منها ، والعناصر الشيوعية التى تدخل فى كيانه ، وتتفق مع روحه وجوهره وصميم بنيانه .

إن الاسلام هو بلا شك الشيوعية الصالحة ، والماركسية الصادقة المفلحة ، وما من خير تزعم الشيوعية أنها تريده إلا وجدت فى هذا الدين مستجابا له ، أو صدى فيه ، أو أثراً ظاهراً منه ، وإن خلا من دعاواها الصارخة ، وتحرر من مساويها المدمرة ، وتعاليمها المخزية الخطرة ، وتنزه عن فاسفتها الأرضية الوبيلة ، وطغيانها العرم إذا حاولت التنفيذ وانطلقت تعتسف السبيل .

أليس فى الاسلام كل هذا الذى تمنى الشيوعية الناس به وإن زاد عليها ذلك الركون الروحى البديع إلى القوة الخفيـة التى تسيطر عليهم ، وذلك الجزاء الالهى الرائع الذى يعدهم به ، والفردية الطليقة مع مواهبها إلى الخير والشر التى لا ترتضيها الشيوعيـة له ، ولا تتركه ينطلق على حدائها إلى حيث يشاء .

ألم ينظم الاسلام الزكاة كعامل أساسى فى قيام الدولة ، والبر كتقريب للمسافة بين الفقراء والأغنياء فيها ، والعدالة كميزان ثابت لا يترنح فى كف الطغاة ، ولا يميل متجانفاً للشر والظلم والطغيان .

ألم يشرع الاسلام لنظام الأسرة ، ويحدد علاقاتهـا وواجباتهـا وصلات أفرادها ، ويجعل منها النواة الصالحة لنشأة الأمة ، وتـكوين الشعب ، وتنظيم المجموع ، وتوقير الأبوة ، وتهذيب الذرارى والبنين .

إن الأسرة فى الاسلام نظام « مثالى » بديع ، يفوق فى مثاليته تعاليم الحضارة الغربية كلها ، وللمرأة فيه مكان يسمو على مكانهـا فى أحدث المدنيات ، وعند أرقى الشعوب التى تزهى اليوم بأنها قد أعطتها آخر ما لديها من الحقوق والمزايا والاعتبارات .

المرأة فى الاسلام هى ملكة البيت ، وربة العشيرة ، ومنشئة الجيل . وأم الدولة ، والعاطفة القوية خلف عقلية الجماعة ، ومادية الحياة العامة ، وقسوة النظم والقوانين .

ألم يحارب الاسلام الجهـل ، ويوجب العلم ، وينصح بالاستزادة منه ، ويعرف للعلمـاء حقوقهم به ، ويشجع على مكافحة الأمية حتى بالانتفـاع بالأسرى المتعلمين ، ليعلموا فقراء المسلمين وأبناء المؤمنين ،

لأن العلم يهدى إلى أصوله ، ويعين على معرفة تعاليمه ، ويباعد بين المرء وشرور الحياة ، ويهذب الطباع ، ويوكد قوة الدين .

لقد حارب الاسلام الجهل حربا لاهوادة فيها ، فلم يلبث المسلمون أن سبقوا الحضارات التى جاءت إلى الدنيا قبل دينهم فى مختلف العلوم ، ومنوع الفلسفات ، وغرائب الفنون ؛ فجعل فيهم الأساطين الأولين فى الطب ، والكيمياء ، والعمارة ، والبناء ، وعلوم السياسة والهندسة والكلام والبيان والتبيين .

الاسلام عدو الجهل ، لأن شرائعه وسننه ونظمه تحتاج إلى العلم والنور والعرفان ، والبحث والدراسة والنظر فى خلق الله ، وتكوين الأرض والسماء والأفلاك ، تقتضى التوسع فيه لأن معرفة الخالق لا تتأتى إلا من دراسة الخليقة فى مختلف ظواهرها ومعالمها وصلاتها المتداخلة ، وارتباطها الوثيق المتين .

وقد عنى الاسلام بالنصحة العامة ، فجعل صحة الأبدان فوق صحة الأديان ، ولعله الدين الأوحد الذى وضع مفتاح الصحة فى قفل واحد ، وجاء بما يمنع المرض فى وصية موجزة ، وأباح التغذية والمتع المتصلة بها ، مع مراعاة القصد والحيطة ، وخشية الاسراف .

وإذا كان الاسلام قد شمل الحياة العامة بهذه العدالة الرفيقة الحانية ، وأضفى عليها كل ما ينظم فروعها ، ويصلح من شئونها ، وينسق مطالبها تنسيقاً ، فما أغنى الناس به عن الشيوعية وحلمها الخيالى ، وما أحراه أن يؤخذ بروحه الانسانية السامية ، وجوهره المثالى الخير الصريح .

إن الشيوعية بكل ما تمنى به البشر من خير ممكن التحقيق ماثلة فيه ،

أما الجزء الوهمى منها ، والناحية الخبيثة فيها فقد أغفلها إغفالا ، لأنه لم يأت إيهاماً ، ولم ينزل إلى الدنيا ليشغلها بالأخيلة ، ويحدثها حديث الأمانى والأحلام .

لقد جعل الخير فى هذا العالم ممكناً بلا عنف ، ميسوراً بغير اشتداد ، وأقام العدالة فيه جائزة يسيرة لا تحتاج إلى استياق الناس إليها بالقسر ، ولا تقتضى العسف فى إقامتها والطغيان والقهر .

أما الشيوعية ، حتى فى ناحيتها الباغية ، ووجهتها العنيفة الطاغية ، فقد ثبت بالتجربة أنها لا تنفذ إلا إرغاما ، ولا تتحقق إلا قسراً وإلزاما ، محتجة بأن الناس لا يحملون على النظام إلا مسوقين ، ولا يرتضون الخير إلا مدفوعين مكرهين .

وشتان بين مذهب يقوم على الحب ، وتعاليم تنهض على الكراهية ، وما أبعد الفرق بين السائق على الحداء ، وبين السائق على السوط والصياح والدفع والايذاء .

وقد يعتذر الشيوعيون عن عنف وسائلهم بأن هذا العنف ضرورة فى بداية الأمر لا معدى عنها ، وأنه إذا استقر النظام الشيوعى ، ورسمت أصوله ، وريضت النفوس عليه ، فلن تبقى بعدئذ حاجة إلى دفع الناس إليه ، ومحاولة إلزامهم الطاعة له . ولكن هذه الحجة على وجهها متهافتة واهية ، لأن المنفذين بالقوة والاكراه لن ينزلوا عنها بل كل طاعة ظاهرة تدفع بهم إلى مزيد من البغى ، وتغريهم بمواصلة العسف والعنف والطغيان .

وسيقع لهم ما ليس فى الشيوعية كتعاليم ، سيقع لهم « الاستئثار » الذى يأتى من السلطان ، و « الاختصاص » الذى تنطوى عليه السيادة

والتفرد ، الذى يصاحب النفوذ والسيطرة والإشراف .

وفى روسيا اليوم صفوة مختارة تعيش فى معزل ، ويكاد أفرادها يحيون محجبين .

أولئك هم الحكام والرؤساء الذين يسكنون القصور ، ويقيمون فى الريف المحيط بموسكو ، حيث يقتنون المغانى الزاهرة ، والداكات[1] الغناء فى وسط العزب الكثيرة ، والضياع الواسعة ، وحيث يعودون إليها من عملهم الرسمى ، شاقين طرقا حفت جوانبها بالأشجار الباسقة ، والزروع الناضرة ، وانتثر خلالها الشرطة والحراس ، يذودون عنها السابلة ، حتى يمر السادات فى سبيلهم آمنين مطمئنين .

وقد أطلق على المنطقة أو الضاحية التى خص بها أولئك الغطاريف العظماء ، غرب العاصمة الروسية ، على ضفاف نهر موسكافا Moscava « المنطقة المحرمة » فلا يسمح لأحد بأن يسكن فيها إلا بترخيص خاص من وزارة الأمن العام .

وأكثر عظماء السوفييت أو شبه العظماء من « جوزيف ستالين » إلى من دونه يقتنون فيلات فى تلك الضاحية ، وإلى جانب كبار الموظفين وأعضاء الحزب والوزراء ، وقواد الأسلحة ، يسكنها أيضاً مديرو المصانع ، وأعضاء مجمع العلوم ، وكبار المؤلفين والرسامين والممثلين .

لقد أصبحت هذه الفئة الممتازة هى « قشدة » المجتمع السوفيتى وزبدته ، ولكن ليس لهذه الطبقة الخاصة من الحياة مثل ما تنعم به

---

(١) الداكا « Dacka » هو المنزل الأنيق فى الريف ، أما المزرعة فتسمى فى الروسية العزبة isba ولعلها مأخوذة من العربية .

شبيهاتها فى الحياة الأوربية، فليس لهؤلاء الأعلياء «أندية» ولا تضمهم محافل، ولا تنتظمهم جمعيات، وقلما يتزاور أفرادها أو يختلطون، لأن الخوف يمنعهم، والعمل الشاق يحول بينهم، فقد أمسوا يعيشون فى قلق، وتساورهم الخشية من الاختلاط، لئلا يكون فيه وبال أمرهم، أو قد يكون فى الصحب والخلطاء جواسيس وعيون عليهم، كما بات العمل يرهقهم، ويشغل أكثر ساعات نهارهم وليلهم، حتى ليعود الكبير منهم إلى داره أكثر الليالى فى الساعات الواهنة قبل مطالع الضياء.

وإذا كان للكتاب والشعراء وأهل الفنون مكان بين العلية الروس فليس اصطفاؤهم راجعاً إلى شىء غير أنهم أدوات الدعاية للاتحاد السوفيتى والترويج لنظامه، والآلات المسخرة فى خدمة فكرته واتجاهاته، وإنهم فى روسيا لمدللون، ولهم امتيازات وحريات لا يتمتع الموظفون وكبار رجال الحزب الشيوعى بمثلها، ويكفى أن يكون الكاتب أو القصاص أو الممثل أو الرسام داعية للشيوعية فى مختلف مظاهر إنتاجه الفنى، لكى يعيش فى ترف، وينعم بحياة رغد وكوثر وبذخ، وتطلق له القيود المفروضة على الآخرين.

ويوم تكتب أو ترسم أو تمثل شيئاً يرضى الشيوعية وحزبها، تصبح الفنان الأثير الرائج الطليق تفعل ما تشاء.

ولعل قسطنطين سيمونوف أكثر الكتاب المسرحيين إنتاجا، وأعظم أهل الفنون ثروة، حتى لتظل عدة مسرحيات له أشهراً طوالا تمثل فى وقت واحد على مئات المسارح فى طول البلاد وعرضها بغير انقطاع، وهو يتقاضى عن كل واحدة منها نسبة معينة من الإيراد،

وقد قررت الحكومة منذ عهد قريب لتيسير المحاسبة أن تفتح له حسابا مستمراً فى البنك.. ومعنى هذا أنه حر فى سحب أى مال يشاء فى أى وقت يريد ، دون تعيين أو تحديد ، ولعله بذلك الرجل الأوحد الذى صدقت عليه عملياً فكرة النظام الشيوعى وهى قولهم « من كل فرد تبعاً لمقدرته ، وإلى كل فرد تبعاً لحاجته » .

وكذلك يعيش أولئك السادات الممتازون فى ترف ونعماء ، بينما لايجد السواد الأعظم من الشعب غير بيوت صغيرة ، وأكواخ مهملة ، وأثاث حقير ، فهم قاعدة هذا الهرم الاجتماعى الذى ينهض الخاصة والسادات فى رأسه كالقمة الباذخة، ولكنهم أيضاً صلب البناء السياسى، ودعامة كيانه ، وأكثرهم يشعرون بأنهم قد ربطوا مصايرهم بمصير هذا النظام ، فلا مندوحة لهم عن الولاء له ، ولا مفر لهم من السكون إليه ؛ فلا غرو إذا اعتمد الحزب الشيوعى عليهم كموارد تجنيد وتسخير ، وإن ظلوا يعيشون كادحين فى بشرية مرهقة غير منتظمة ، لتأدية الأعمال الشاقة هم والنساء المكدودات ، إذا جاء الصيف سيقوا إلى أعمال الترميم والإنشاء والرصف والحفر والتعبيد ، وفى الشتاء يعملون فى إزالة ركام الجليد .

وهكذا نرى أن هذا النظام لا يمكن أن يعيش إلا على التخصص ، ولاقوام له إلا بالعنف ، ولا سند له إلا الطغيان .

وما دام هذا النظام قائماً على انفراد جماعة بالسيادة ، وإيثارها بالنعماء ، وتجنيد الدهماء ، فلا سبيل إذن إلى تغليبه على النظام الخلى من هذه العيوب الظاهرة ، وتفضيله على الدين العملى الذى يجعل الناس فى الحقوق متساوين .

ويوم يتوافر فى الشرق الاصلاح الاجتماعى المتزن المعقول ، والتعليم العملى المطلوب ، والنظام الصحى الكفيل بصيانة الصحة العامة لا تجد الشيوعية فيه منسربا ، ولا تستطيع إليه تسللا ، ولا ترى أمامها مادة للاستغلال .

ولا تكفى الوسائل البوليسية لتعقب الشيوعية ، ومطاردة الأوكار وتحطيم الخلايا ، لأن الشيوعية تعرف كيف تستثير ضحاياها إلى التفانى فى خدمتها ، وزيادة حماستها ، بالأمثلة المتوالية على تفانى المعتقلين من أتباعها والسجناء والمعذبين .

ولكن الحرب عليها يتطلب شيئا آخر ، شيئا روحيا ، تجتمع فيه الفكرة القوية ، بالإيمان العميق المكين ، والروح الدينى الصادق النزيه الأمين .

ولسنا بحاجة إلى إيجاده ، أو اصطناع مقوماته وسناده ، فهو قائم وتعاليمه مغنية عن الشيوعية كل الغناء .

ولكن هذا الدين ، على قوته وإحكام سطوته ، وعقلية شريعته ، ومراعاته لبشرية الانسان وعقله وعاطفته ، هذا الاسلام السهل السمح الطبيعى المعقول المساير للنواميس الكونية ، الجديد على الزمن والأبدية بحاجة إلى مؤمنين جدد ، ينفذون بإيمانهم إلى جوهره ، ويحاربون فى معركة الحياة بسلاح فكرته ، ولا يتخذون منه علوما كلامية ، وقضايا جدلية ، ونزاعا على التفسير فيه والتعليل .

اليوم تنهض الشيوعية لتقضى على الدين فأين إذن رجاله ، وأين إذن صفوة المؤمنين به ، لينا فواعن تعاليمه التى جاوزت حدود الديمقراطية التى عرفناها، ودنت من تخوم المثالية التى نتمناها، وعرفت للطبيعة البشرية ضعفها فخففت عنها وتلطفت فى معاملتها ، وتركت الناس أحراراً ، وقطعت ، السبيل على الجبارين .

لقد مست الحاجة فى هذا العصر الملحد الزائغ المادىّ ، القلق، إلى إيمان جديد ، لا يقف عند مجرد الاعتقاد ، ولا يكتفى بمحض التسليم، ولكن يهز العاطفة هزاً ، ويبلغ من الروح الشغاف ، ويتجاوز الاعتقاد إلى العمل المنتج . والهداية البالغة .

ولن تطمئن الحياة العامة فى الشرق إلا إذا أقنا هذا الإيمان ، ووجدنا هؤلاء المؤمنين . . .

الفصل الثانى

الشيوعية وسر جاذبيتها

يبدو انتشار الشيوعية فى أيامنا هذه عجيبا ، ويلوح نموها وترامى حدودها وأفكارها ومنازعها ، ظاهرة فذة فى التاريخ ، فلا تجد فى أحزابها القائمة حزبا ترجع نشأته إلى أكثر من ثلاثين عاما ، إذا استثنينا الحزب الروسى منها ، ومع قصر الوقت لا يكاد يخلو بلد من شعبة شيوعية أو فرع يمت اليها، ويحاول جاهداً نشر نظرياتها الخيالية. ولعلها اليوم تتولى الحكم والسلطان فى ربع مساحة العالم أو نحوه ، ولا تزال تسعى فى طرق أبواب أقطار كثيرة فى الغرب والشرق على السواء .

ولا يقل عدد الأعضاء فى مختلف أحزابها عن عشرات الملايين بينما يبلغ عدد المتأثرين بها مئاتها .

وإذا كان هذا هو شأنها ، فلا معدى لنا عن دراسة طبيعتها ، وتفهم بواعث انتشارها ودوافع فتنتها .

ولسنا نمارى فى أن وراء هذه الفكرة الفتانة تنظيما عجيبا ، واعتدادا من أصحابها بقوتهم وبراعتهم فى الدعوة اليها ، وروح نظام مكين ، يضفى عليها قوة صارمة ويأخذ أهلها بأحزم الأساليب .

ولا نحسب أحدا أيضا يجادل فى أنها لا تتورع فى تحقيق أهدافها

عن استخدام البغضاء والاستعانة بالمخادعة والتغرير، والأخذ بضروب من القسوة والصرامة والعنف، وأنها تتذرع بأفكار ملحدة، وتعطيل للاديان، وكفر بالله، يجعلها تبدو وكأنها فلسفة إيجابية تعتمد فى بقائها على تدمير الإيمان بالقوة الخفية التى تشرف على الكون، ونظام العالم، وتقسيم الأرزاق، وابتلاء الناس بالمحن ليعلم الصابرين منكم والكافرين.

ولكنها مع ذلك كله تدعى لنفسها مزايا طيبة، وتروض الناس على اكتساب سجايا وخصالا قوية عجيبة، لم تعد رائجة فى أيامنا هذه، ولا كبيرة الأثر فى النفوس، لإغراق الدنيا فى «المادية»، وإسراف الناس على أنفسهم فى سبيل مطامعها ومتاعها الزائل، ومفاتنها العابرة، فهى تقتضى مثلا من الفرد الذى يدخل فى غمارها أن يتذرع بالولاء لها، ويبدى الغيرة الشديدة عليها، والاخلاص والتفانى فى قضيتها، والرغبة فى التضحية بذاته فى سبيلها، والاستمساك بهذه الفضائل جميعا فى تحقيق ماترمى اليه من أهداف.

وهى كذلك قادرة على أن تجتذب اليها الأخيار والأطهار وأنقياء الذمم والنيات، وتزعم أن بين المنتمين اليها فريقا كبيرا من أذكى أهل هذا الجيل وأشدهم حماسة وأحسنهم صفات، بل قادرة على استغلال الملايين وتحريكهم كيف تشاء، والسير بهم إلى ما تريد.

ولكل ذلك بطبيعة الحال أسبابه، وهى أسباب لا بد لنا من فهمها لندرك موارد قوتها، وسر انتشارها.

وأكبر ظننا أن مرد ذلك هو إلى وسائل تنظيمها ، وأساليب عملها واستخفافها باعتبارات الأخلاق ، ومبادىء الفضيلة ، والطريقة الفريدة التى تتخذها لتنشئة « الكادرات » وتخريج القادة والرءوس والزعماء والمهيمنين ، والبراعة فى الانتفاع بهم واستغلال حماستهم كل الاستغلال كما يعود إلى احتياطها الكبير من هذه العوامل ونحوها ، تستمد منه حاجتها وتركن اليه فى محاولاتها ، وهو مورد واسع المدى تقوم على تنميته نظرية علمية تمنى الناس بالنصر ، وتحثهم على النضال .

وليس من شك فى أن العامل النفسى الذى يفوق فى أثره تلك العوامل مجتمعة هو أن الشيوعية موحدة الصفوف ، وأن أعداءها متفرقون مختلفون .

ولكن ذلك كله يترك سؤالنا عن سر فتنتها وباعث جاذبيتها بغير جواب .

ويوم نجد الجواب الحاسم عن هذا السؤال ، نعرف كيف نواجه تحديدها ، ونردها مهزومة خاسرة .

الفصل الثالث

الشيوعية ليست مشكلة اجتماعية

ومن المسلم به أن الشيوعية إنما نشأت فكرتها فى الأصل من الفاقة ، والجهل ، والمرض ، أو بعبارة أعم ، من سوء الأحوال الاجتماعية واضطرابها ، ولكن هذه العلل والمساوىء ليست جديدة

على الناس ولاهى من صنع القرنين التاسع عشر والعشرين، وإنما هى قائمة من أقدم العصور، وغابرة القرون والأجيال.

ولسنا ننكر مع ذلك أن الشيوعية كما عرفناها اليوم، وكما تتباين مع جملة الفلسفات المماثلة لها من قديم الزمان والنظريات المتسمية بها خلال الأجيال الماضية أو الشبيهة بها فى المأخذ والمراد، لا تزال شيئا جديدا، أو شيئا يتصل بالحياة الحديثة ويمت إليها بأكبر الأسباب، أو شيئا نشأ فى القرن التاسع عشر، ثم نما ودرج وشب عن الطوق فى القرن العشرين فأصبح منتميا إلى زماننا، وثيق الصلة بالحياة التى نحياها.

وقد رأينا الشيوعية فى هذه الأيام تتغذى من الفاقة، وتعتمد على الجهل، وتستمد وجودها من الظلم وانتفاء العدالة الاجتماعية، وتفشى المرض والحرمان، بل لقد شهدناها تستخدمها جميعا لأغراضها، وتستغلها بجملتها لمصلحتها، ولكنها ليست الأسباب التى منها نشأت والعوامل التى دفعت إلى قيامها.

إن الشيوعية أولا وآخراً ليست مشكلة اجتماعية، ولا مشكلة سياسية، ولكنها فى الواقع مشكلة «روحية» أو «نزعة عاطفية» وإذا نحن فهمناها على هذا الأساس، وتناولناها من هذا الوجه، استطعنا أن ندرك سر انتشارها فى هـذا العصر بالذات، ورواج الدعوة إليها فى أيامنا خاصة، ولو أنها ظهرت فى عصر من عصور «الإيمان» لما انتشرت على هذا النحو، ووجدت المرتع الخصيب الذى وجدته اليوم، لأن هذه الفكرة لا يمكن أن

تصيب ملايين من المعتنقين إلا فى عصر وثنى أو عهد من عهود الكفر والزندقة والإلحاد .

وإن نموها اليوم ليثبت بأقطع برهان أن الانسان بطبيعته لايستطيع أن يعيش بغير إيمان صادق مكين ، إذ يكفى أن ينشأ جيل من الناس أكثر أهله لا يدينون بعقيدة دينية ، ولا تستمكن من نفوسهم نزعة إيمان صحيح ، ليدور بعينيه نحو مذهب سىء ، ونحلة باطلة ، واعتقاد صلب جامد ، كما هو شأن « الماركسية » الملحدة التى لا تعرف الله ، ولا تؤمن بوجوده ، بل إنه ليعطى هذا الاعتقاد الحماسة والقوة والتفانى الذى ينبغى أن يكون لكل دين صحيح .

فلا بدع إذا رأينا الشيوعية تتقدم إلى الناس بالتوجيه ، وتصور لهم غرضا فى الحياة ، وتضع أمامهم قضية يكافحون فى سبيلها ، ومثلا أعلى يتفانون فيه ويموتون من أجله راضين ، لأنه يقتضيهم حماستهم ، وولاءهم وتفانيهم ، وهى جميعا مطالب الدين من الناس ومقتضياته ، وهى بجملتها لله ، وفى سبيله ، ومن أجل نصرته ، ولكن فى هذا العصر الملحد الزائغ المستخف بالدين لا ترى أحداً من معاشر الشيوعيين يفكر فى الاستعاضة بدين من الأديان الثلاثة الكبرى حتى ولا بالمسيحية ذاتها التى تعد دين العاطفة ، ومستجاب الروح ، ولا بالاسلام وهو دين العقل والمنطق والتوزيع العادل ، والزكاة العامة ، والحضارة المسايرة لجميع العصور والأجيال .

لقد أحس الناس اليوم ظمأ إلى فكرة جديدة ، وسغبا إلى مبادىء مستحدثة ، وترك رجال الأديان الكبرى سوادهم فى ضلة من أمرهم

حيارى فى هذه الدنيا التى تتراءى لهم متخبطة بغير غرض ، مشردة ضالة بغير هاد ، ولو أن سلطانهم كان قويا ، وحجتهم لتلقين الأديان متقدة مزكية ، لبقى الوازع قائما ، ولما استخف سواد الناس بالإيمان ، واستهوتهم الشيوعية بأحلامها وصورها الزاهية، لأنها جاءت والناس خلاء منه ، وفى قلق من التجرد دونه ، والعيش بلا فكرة تسد مسد الدين ، ولها مثل مفاتنه ومرغباته ، أو بعض سحره الخلاب .

وقد شاع هذا القلق الروحى فى العالم ، ولا يزال الدين عاجزا عن إزالته ، لامن ناحية جوهره وصميمه ولب فكرته ، ولكن من ناحية علمائه الذين خضدت شوكتهم، وسكنوا إلى ضعف سلطانهم وسيطرتهم ، فلبثوا جامدين .

الفصل الرابع

أحزاب الفقراء !

وقد جاءت الشيوعية ، وهذا القلق بالنفوس مستبد، فاذا النفوس متهاوية اليها ، والأفكار متراقصة حولها ، والناس ضحاياها الرخيصة ، وفريساتها السهلة ، وغنيمتها الباردة ، لأنها تستطيع أن تشبع الأرواح من مسغبة، وتغنى الأخيلة من متربة، وتسكن ثائرة هذا القلق المستحوذ المستمكن من الأذهان ، فلم يلبث الشيوعيون أن أقبلوا يغذون هذه الأخلاد الجائعة ، ويستغلون هذه الرغبة التواقة إلى الكفاح

عن عقيدة جديدة ، وينتفعون بما يحدوها من دوافع فى سبيل تحقيق مآربهم الذاتية فى هذا العالم المريج المضطرب من جميع نواحيه .

ولو أن الشيوعية كانت مجرد وليدة الفاقة ، ونتيجة الفساد وسوء الحال والظلم العام فحسب، لكانت أحزابها حتما هى أحزاب الفقراء، وجماعات الساغبين والمدقعين ، وحشود الجهال والمرضى والمدنفين ، أو لكان أكثر أفرادها كذلك شأنا ، ولقل العدد وتناقص شيئاً فشيئاً ، كلما ازدادت الجماعة نظاما ، وارتفعت درجة فى سلم الثروة والعدالة والنصفة فى التوزيع .

ولكن المشاهدات دلت على أن الأمر ليس كذلك، حتى فى أكبر الأحزاب الشيوعية خطراً ، وأعجبها تنظيما وإعداداً ...

خذ الحزب الشيوعى فى بريطانيا مثلا ، تجد الواقع على النقيض وتر فيه فريقا من أهل الارستقراطية القديمة، وأرباب الارستقراطية المحدثة، وفريقا أكبر قليلا من « صغار الرأسماليين » وهؤلاء جميعاً فيه قلة ظاهرة ولكن سواده الأعظم فى الحقيقة من « المستنيرين » والموظفين وأرباب المهن وأفراد الطبقة الوسطى عامة ، وليس فيه من ذوى المتربة قليل ولا كثير .

أما الأحزاب الشيوعية الأخرى ، فإن الغالب فيها ، أو العنصر الذى يقيمها على أسس « بروليتارية » ، فهم الصناع الذين يتقاضون أكبر الأجور ، أو العمال المهرة المدربون .

وفى الحق لا تجد فى هذه الأحزاب أحدا من سكان الأكواخ ، وقطان « العشش » والفقراء الذين طحنتهم الفاقة طحنا ، والمرضى الذين

اصطلحت العلل عليهم ، والمظلومين الذين عصف الظلم بهم عصفا .

ولو كانت الشيوعية آتية من هذه العوامل ذاتها، راجعة فى النشأة إلى هذه العلل والمساوئ فى جملتها لكان الفقراء والمرضى المظلومون هم دعامتها ، وغالبية عضويتها ، والعناصر البارزة فى صفوفها المتكاثرة، وقد رأينا فى الفترات التى اشتدت خلالها الأزمات الاقتصادية ، من عهد ليس ببعيد ، حين انتشرت الفاقة، واستفاض البؤس ، وارتفعت أرقام العاطلين والمتبطلين إلى الملايين ، كيف ظلت الأحزاب الشيوعية خالية من هؤلاء الفقراء والمكدودين ، مخفقة فى اجتذاب الكثرة الغالبة من العناة والمحدودين ، وإن لبثت أعواما طوالا تحاول جاهدة جمع أشتاتهم ، وإدخال فريق كبير منهم فى حظيرتها المتلهفة على وقوع الصيد فى فخاخها المنصوبة ، وأشراكها الممتدة فى كل مكان .

وقد عمدت يومئذ إلى استياق فريق منهم إلى الانتظام فى هيئات وجماعات ، « غير شيوعية » كما زعمت ، وحاولت مستيئسة مخادعتهم والتغرير بهم ، ولكنها فشلت فى تحويلهم إلى شيوعيين « خالصين » .

ومن ذا الذى يجهل اليوم كيف تريد الشيوعية ابدا أن تستغل الفقراء فى كل بلد ، إذا ما ضربته ضائقة ، وتستخدم الطبقات العامية المكدودة ، إذا ما عرضت له أزمة مستحكمة، أو حدث فيه انقلاب.

هذه هى الفرصة السانحة لها ، والظرف الملائم لمصلحتها ، بل هذه الأزمات والانقلابات أصلح ما تكون لنشر دعاياتها،والترويج لمبادئها ونزعاتها ، لأنها على الظلم الاجتماعى تعيش ، ومن إساءة التوزيع تتغذى ولكن ليس هذا الظلم هو الذى يدفع الشيوعية إلى النضال ، ولا هو

بسر قيامها بين الناس ، إذ لو عكسنا الوضع ، وقلنا إن الفاقة والظلم والحرمان ، أو إن شئت قل انتفاء الأمان فى العامة والدهماء هو سبب قيام الشيوعية ومنشؤها ، لارتقبنا من الشيوعية الفشل التام فى التأثير فى نفوس المتوسطى الحال ، والمطمئنين إلى العيش ، والمنخرطين فى وظيفة من الوظائف ، والعاملين فى صناعة من الصناعات .

ولكننا فى الواقع نشهد ألوفا من الآباء يريدون أن يسلكوا أبناءهم فى الوظائف العامة ، أو فى الشركات الأهلية ، معتقدين أنهم واجدون فيها رزقا حسنا ، أو منقلبا رغيدا وطمأنينة إلى مرتب ثابت أو معاش لا بأس به ، وهو اعتقاد ينهض على أساس ، لأن ذلك فى الغالب هو الواقع ، أو هو فى الجملة معقول .

ولكن الشيوعية لا تزال تحوى فريقا من المشتغلين بالوظائف العامة ، أو العاملين فى المؤسسات والشركات والمهن الكفيلة بمطالب الحياة ، حتى لا يكاد يخلو بلد من حزب شيوعى ، سواء أكان يعمل جهرة أو يشتغل فى الخفاء ، لا يعتمد على فريق كبير من هؤلاء وأولئك ، بل إن منهم طائفة من الموفقين فى وظائفهم والناجحين .

ولسنا نستطيع أن نعلل شيوعيتهم بالفاقة ، لأن كل فرد منهم أوتى دخلا يتجاوز على الأقل حدودها ، ولا بالقلق على المصير ، لأنهم لن يستهدفوا لفقدان وظائفهم ، إلا فى أحوال إساءة السلوك والإدانة فى تهم تتصل بعملهم . ولن يحرموا فى الشيخوخة من معاش يكفل لهم الحياة ، ولا بالمرض والبؤس ، لأنهم فى الأغلب يعيشون

فى مساكن متواضعة تتيسر لهم فيها أسباب الراحة ، إذا عنى بأمرها ، وحسن القيام على تنظيمها وتهذيبها ، وقنعوا بالقليل الصالح ، دون الفاخر والمترف ، ولم يمدوا أعينهم إلى مطمع بعيد .

الفصل الخامس

روح المخاطرة

ولكن من الناس قوما لا يجدون فى عيش رتيب كهذا وحياة هادئة كتلك ، ما يثير فيهم روح المخاطرة ، أو يهزهم إلى التماس الغريب والشاق والمطلب العنيف الوعر ، ويحسون أن العيش على هذا النحو قد خلا من عنصر « المثالية » وتجرد من الطرافة والتجديد ، وأمسى بليدا فاترا لا استحداث فيه ، فلا شىء يمكن أن يكفل لهم غرضا معينا فى هذه الحياة ، ووجهة يتجهون إليها ، وعقيدة توحى إليهم بوجوب التضحية بالذات وتشعرهم بأن الحياة اليومية السقيمة الرتيبة فى هذا العالم المادى ليست بداية كل شىء ومنتهاه ، وتعرفهم بأن العيش الذى هم سالكوه حقيق بأن يعاش ، سوى إيمان يقتضيهم الكفاح والنضال ويدخل على حياتهم هذه العوامل الجديدة الدافعة إلى الطريق .

وهذا هو ما هم واجدوه فى الشيوعية على الأقل ، أو ما يرضى نفوسهم القلقة المتبرمة حتى حين ، فلا يلبث الموظف فيهم أو المحامى أو المهندس أو الطبيب أو الطالب فى المعاهد العالية ، بعد انقضاء النهار ، وهو فيه المتزن الهادىء ، المنهمك فى عمله ، المستمسك بوقاره ، أن

يتنكر بزى آخر ، ويبدو فى صورة غير مألوفه ، ويتسلل تحت جنح الظلام ، منتحلا اسما من الأسماء ، فيشتغل بعمل شيوعى معين ، وينخرط فى نشاط خفى ما ، وتستولى عليه أفكار ومبادىء وتصورات يؤمن بها أبلغ الإيمان، وهو فى ذلك كله نافض عنه السآمة التى استبدت به ، ناف الملل الذى أخذ بمخانقه ، واجد شيئا من المغامرة والاستبسال ، مريح ضميره القلق المضطرب من جراء استمتاعه بشىء من الرفاهيـــة ، بينما يشهد فريقا كبيراً من أفراد طبقته فى شقاء اجتماعى أليم .

فإذا أصبح « ماركسيا » عليما بدقائق الفكرة وأصولها ، وجد مجالا فسيحا للمخاطرات ، وترامى على عينيه السبيل للمغامرات ، فانطلق يضع التقارير ويعد المذكرات . وتفتحت له مغاليق الأسرار وهو فى طريقه وسط المعارش والسقائف إلى قلعة الشيوعية وحصنها الحصين . ولا يلبث أن يعتقد أن كل هذا الذى يتحمله ويقاسيه ويمارسه هو لخير القضية ومصلحتها . وجزء من الكفاح حيال الظلم ، والنضال من أجل المضطهدين الذين ديسوا بالأقدام .

وهكذا يشبع النزعة « المثالية » لديه كلما رأى القيم والمقاييس مقلوبة فى ناظره .

ولسنا نحسب أحداً فاته لقاء خلق كثير من هـذا الطراز الجديد من الناس .

فلا غرو إذا قلنا إن إحالة الحياة مغامرة على هـذا الغرار تقتضى « إيمانا » ، وتحتاج إلى حماسة ، ترتفع بالفرد الذى تتملكه عن بيئته ،

وتسمو به عن وسطه ومحيطه، وهذا الايمان يصبح متنفسا له من الحيرة والقلق والضلة التى اصطلحت فى هذا العصر عليه ، بل يصبح مغنيا له عن الشيوعية ، ومستعاضا لنفسه عن الحومان حولها ، منصرفا به عن مؤثراتها الخداعة الفاتنة .

هذا هو «الإيمان» المطلوب فى أيامنا هذه ، الايمان المانع من الشيوعية، المحصن من هجماتها، القوى المكين حيال مفاتنها المتعددة

نريد «إيمانا» كهذا لينجو الجيل من هذا الشر المجمل المرسوم فى أزهى الألوان ، المعلق فى إطار بديع خلاب فوق الجدران ، لإثارة النفوس المتلهفة على شىء جميل تنشغل به ، وصورة متقنة مختلبة يذهب معها الخيال كل مذهب .

ولكنك إذا حرمت الجيل من هذا الإيمان المنشود فلا تعجب إذا رأيت فريقا من شبابه ، وجمعا من أهله مندفعين نحو هذا الخطر المنادى الناس إلى هاويته .

لقد انتشرت الشيوعية فى العالم وتكاثر عداد الشيوعيين فى الدنيا، لكثرة الأفكار الضالة وتفشى القيم الخاطئة ، وانتشار الأقيسة الكاذبة بل فى الواقع ما مكن لها فى الأرض ، وأعانها على التمادى ، إلا كثرة الذين باتوا ولا قيم لديهم ، ودون مقاييس لهم إطلاقا ، وبغير أفكار ولا تصورات ولا أحاسيس .

ولقد ظل الناس عشرات السنين يسمعون بعض المعلمين والهداة يقولون لهم آمنوا بأى ما أنتم مؤمنون ، فحسبكم أن تكونوا قوما

أخيارا ، وإذا بالناس فى النهاية كما رأينا يصبحون فى الجملة أخلياء من كل إيمان أو ضعفاء الإيمان بدينهم القديم .

وليست الشيوعية على هذا القياس سوى «وثنية» محدثة ... وكفر من نوع جديد ، والويل لبلد يكثر فيه الكافرون الجدد ، والوثنيون المحدثون ، لأنه لن يلبث أن يمسى لقمة سائغة فى فم الشيوعية الشرهة الحديدة الأسنان .

وما الشيوعية إلا تعبير عن مرض روحى غائر الجذور فى صميم الإحساس ، فلا تستطيع قوة أن تستأصله إلا إذا استعانت ... بالإيمان ، وأكبر ظنى أن الناس مستجيبون إذا نحن قدمنا إليهم مثلا أو عقيدة أو إيمانا ، لأن الذين فتنوا منهم بالشيوعية لم يفتنوا إلا لغياب هذا العنصر عن حياتهم الجديدة فى هذا العالم المادىّ الأثيم .

إن المسيحية فى الغرب تتراجع حيال الشيوعية الزاحفة ، والإسلام لا يجد من علمائه وأساطينه وأقطاب معلميه قوات مسلحة بالعقيدة الخالصة ، مدرعة بالحنيفية السمحاء ، لترد هذا الغَىّ الفاتن على عقبيه خاسرا .

أما اليوم فقد بلغ عدد الشيوعيين قرابة أربعين مليونا أو خمسة أو ثمانية أمثال عددهم فيما مضى . أى أن ذلك الوليد لم يعد وليدا ، بل أخذ يدرج ويكبر رويداً ، وبدأ يشهد حوله فريقا كبيرا من العاطفين عليه الذين أوتوا علم « الماركسية » وتعاليمها ، ومجموعة من الأشياع الذين يدورون فى فلكه ، ويمشون فى أذياله ، فلا غرو إذا أمسى قديرا على إحداث أزمة اقتصادية بالغة يوم يجد الفرصة مواتية .

ومن الخطأ أن يذهب بنا الظن إلى أن الخطر الشيوعى لا يهدد

المسلمين ، وإنما أثره إنما يقتصر على غيرها من الدول والشعوب ، بل الواقع أنه خطر عام لامعدى عن مواجهته ، ومقابلة تحديه ، فى كل بلد من بلاد العالم عامة، لأن المتأثرين والمعرّضين للتأثر بدعاياته يتكاثرون على الأيام خارج حظيرة الأحزاب الشيوعية ذاتها ، وفى الأوساط التى كان يظن أنها من هذه الدعاية بمنجاة : وكم من قوم يعدون أنفسهم اليوم مناهضين للشيوعية ، ولكنهم فى الحق واقعون تحت تأثير الأفكار « الماركسية » ، متقبلون بلا تفكير ولا تبصر نظريات ومبادىء ترجع نشأتها إليها .

ولو اتحدت الأديان العظيمة ، ووضع الغرب يده فى يد الشرق ، وتقدما للمكافحة والنضال لأنقذا العالم من شر مستطير .

الفصل السادس

خطر عام

ولانظن أن فى العالم بلداً أقل تعرضا لتحدى الشيوعية، واستهدافا لخطرها من بريطانيا ، على الرغم من قيام حزب شيوعى فيها ، وكان أهلها فيما مضى من السنين يضيقون ذرعا بالشيوعيين أو يستخفون بهم وإن لم يروا فى وجودهم بين ظهرانيهم خطرا بالغا، ولا شرا عظيما، بل اقتصرت مناقشات الناس فيها بسبيل الشيوعية على بحوث فقهية ، أو دراسات نظرية ، أو جدل « أكاديمى » .

ولكن هل تراها اليوم فى مناعة منها ، وهل بات أهلها مطمئنين على يقين بأنها لن تحدث أحداثها فى بلادهم؟؟ لأن الأحوال الاجتماعية فيها لا تشجع على نموها وازدياد شأنها وسلطانها ، ما دامت العوامل التى ألفت أن تستمد منها غذاءها ليست متوافرة ، فالأجور أصبحت أكبر مما كانت من قبل ، وإن بقيت الأسعار عالية ، والأمراض الناشئة من سوء التغذية وما إليها أمست قليلة أو غير متفشية، كما كانت عام ١٩٣٠ أو قرابته ، ولم يعد الناس يشهدون الصفوف المتراصة أمام وزارة العمل لطلب عمل ، والتماس مرتزق ، من أثر كثرة العمال العاطلين ، بل لقد توافر لأفراد الشعب البريطانى قدر من التأمين الاجتماعى ، وحظ من العيش لا بأس به ، وأمان من العطل والتشرد.

ولكن المتتبعين لسير الحياة العامة فيها متفقون على أن هناك شيئا ما ينقص هذه « الرفاهية » الظاهرة ، بل إن هناك شيئا يوحى بأن هذا « الرغد » العام ليس حقيقيا صادقا ، لأن الأمر كله مرهون بتجارتها الخارجية ، ومدى إقبال المشترين فى الخارج على ابتياع سلعها، وشراء كل مافى مكنة مصانعها أن تنتجه، ويوم تبور فى الأسوق ولا تجد الشراة عليها مقبلين ، تتعرض لأزمة أخطر أثرا ، وأبعد مدى ، من الضوائق التى حلت بها فى السنين الماضية ، وأقسى نتائج ومضاعفات فى حياتها الاجتماعية ، لأنها فقدت فى الحرب الثانية أشياء كثيرة ، كانت تضفى على حياتها العامة فى الماضى ألوانا صناعية وتكسبها أقيسة عالية ، فإن ضربتها على الايام ضائقة أخرى من هذا القبيل ، كان البلاء أعظم وأدهى .

وكان عدد أعضاء الحزب الشيوعى فيها خلال الضائقة الاقتصادية الأخيرة التى حلت بها يختلف بين خمسة آلاف وثمانية آلاف، ولكن أولئك الشيوعيين استطاعوا على قلتهم أن يستخدموا إلى حين عشرات بل مئات الألوف من العمال العاطلين ليجعلوا الأزمة أشد خطرا، وأسوأ عقبى، وأدعى إلى قيام حرب أهلية فى البلاد، وكثيراً مانظموا منهم مظاهرات صخابة، تشترك فيها مئات الألوف، وتروح تخترق الشوارع العامة، وتشتبك مع البوليس فى معارك حامية.

الفصل السابع

المسافرون مع القافلة

ولا ينقضى عام حتى يزيد عدد الداخلين فى أفواجها، وهم الذين يسميهم الشيوعيون «بالمحصول» أو «حصص الأرباح» أو الغلة والإيراد، فى تعبير الزراع والتجار والمحترفين، وهؤلاء فى الغالب أفراد تفتنهم إحدى حملات الدعاية الشيوعية، وتستهوى أخيلتهم منها فكرة عارضة، أو حجة مقبولة أو نقطة عابرة، وإن كانوا فى الواقع لا يعرفون شيئا عن أهداف الشيوعية وأغراضها الحقيقية، ولم يؤتوا العلم بالدقائق منها والتفصيل.

ولعل أول شىء تلجأ الشيوعية اليه فيما يتصل بهم فى إحدى حملاتها وتنتقل بهم من بعض شعائرها الحسنة الجميلة فى ظاهرها، إلى رموز

وتعاليم أخرى أجمل من الأولى وأفتن مظهرا ، ثم تلقنهم دروسا فى « التربية الماركسية » بادئين بالفصول الأولى، ثم صُعُدًا إلى الأقسام العالية فلا تنقضى أشهر معدودات حتى يتلقوا منهجا فى « الاشتراكية العلمية » ومنها يرقون إلى برنامج خاص فى باب « المادية الفقهية » أو « الفقه الماركسى » .

وهكذا يقتضيهم الدرس حياتهم كلها، وقد يهبها فريق منهم طائعين راضين، وآخرون لا يستطيعون لها وهبا ، فينصرفون نجيا خارجين ، وفى بعض الأحايين تأبى عليهم نساؤهم الاسترسال مع الشيوعيين ، فلا حيلة عندئذ لهم سوى إغرائهن بالانخراط معهم ، وتحبيب الفكرة إلى نفوسهن ، فتكون العاقبة إهمال البيت ، وإغفال الولدان ، أو ينطلقون هائمين وينصرفون إلى الشيوعية بكليتهم مضحين بالأسرة والحياة المنزلية وكل شىء .

ويومئذ تعروهم حالة نفسية جديدة، وتستبد الفكرة بهم استبدادا فلا يعودون يرون العالم إلا بالعين الماركسية ولا يقبلون غير الأقيسة والقيم الشيوعية .

أولئك هم « المسافرون » المرافقون الذاهبون فى القافلة إلى حيث تذهب ، تاركين إرادتهم حيث يتلقفها المستغلون ، متلقين الاتجاه من شيوعى فى متجر ، أو عضو فى شركة ، أو فرد فى خلية أو جمعية أو نقابة عمالية ، وهم قائلون إنهم ليسوا فى الحزب أعضاء ، وإن كانوا فى الحقيقة والواقع موكلين منه بمهمة ما ، وهم لا يشعرون.

وعلى هـذا النحو يقـبل ألوف فى كل عام ، ثم يصبحون بدورهم مضللين ، وهـكذا دواليك يتكاثرون على السنين .

وهى مشكلة خطيرة بات العقلاء وأهل الرأى منها قلقين موجسين ، وكل تفكيرهم اليوم هو تدبر الأمر ، ومواجهة هذا التحدى ، والقضاء عليه ودحره بأى سبيل .

الفصل الثامن

الدعاية الناشطة

وقد سمعنا فريقا من الشيوعيين أنفسهم يقولون فى معرض السخرية من الدعاية المناهضة لمبادئهم فى أيامنا هذه أن ليس فى هذه الحملات ما يقلق بالهم ، لأنها لا تخدم أحداً سواهم ، ولا تجدى نفعا على شىء غير الشيوعية ذاتها .

ولعل هذا هو فى الغالب شأنها وأثرها ، لأن أكثرها فى الواقع يقوم أو ينطوى على تشويه للحقائق ، أو غلو فى القول ، أو أكاذيب صريحة لامرية فيها .

ولـكنا على يقين بأن المسئولين عنها فى الغالب إنما يصدرون فيها عن إخلاص ، وصدق طوية . وحسن نية ، ولـكنهم على فرط كراهيتهم للشيوعية وعلمهم بمساويها وشرورها ، لا تزال تعوزهم الدراسة المتعمقة ، والسيطرة على الحقائق والتفاصيل ، فلا يجدون

ما يستعيضون به عنها غير الركون إلى الخيال ، والاعتماد على الصور والتهاويل .

وقد وجد الشيوعيون فى ذلك ونحوه فرصة طيبة ، فان كانت تسعة أعشار حجة خصومهم صحيحة ، أمسكوا بالعُشْر غير الصحيح وشهروا به تشهيرا ، وأبطلوا الحجة كلها من هذه الناحية المكشوفة ، وحصروا كل همهم فى هذا الجزء الضعيف ، واستنتجوا من بطلان الحجة ولغوها ما هم مستنتجوه .

وحسبك أن تدلل على خطأ أحد من وجهة التفاصيل ، أو من جزئية من الجزئيات ، لتحطم عند الرأى العام أقواله بجملتها ، وتسحقها سحقاً يذروها مع الريح .

وقد اتصل خلق كثير فى السنين الماضية بمعاشر الشيوعيين فى المصانع والنقابات وغيرها من المنظمات والهيئات ، فلمسوا من اتصالاتهم بهم كيف تنأى هذه الدعايات المتهافتة عن الحقيقة ، ولا تصيب غير قسط ضئيل من الواقع ، لأنها لا تتفق وما يجرى فعلا فى الخلايا والكادرات .

وليس معنى هذا أن الدعايات المناهضة للشيوعية تقوم على المغالطات أو لا تحوى شيئا من الحقائق ، ولكن معناه أن فيها عناصر من التهافت أو المين تفيد الشيوعية منها وتستطيع أن تحيلها إلى مصلحتها ، وتهوّل فى مدى خطتها تهويلا ، وإنا لنؤثر ألا تقوم دعايات ما على أن تخرج الدعاية ضعيفة واهية ، سقيمة غير مستندة إلى أساس مكين .

الفصل التاسع

ذهب المعـــز !

لقد ألفنا فيما مضى من محاربتنا لها أن نقول عنها أغرب القول ، ونصف أهلها بأقبح الأوصاف ، ونتهمهم بملء الجيوب بالأموال الروسية ، أو « ذهب المعز » ، ونضار موسكو وسادتها الحمر ، أو نكتفى بأن يقال إن الشيوعية لا تستحق الرد ولا تستأهل البحث فيها والتفكير .

ولكن حجة الأديان ، إذا تسلح أهلها بأكمل نصيب من معرفة الشيوعية ووقائعها وحركاتها ومسالكها وأساليبها ، لا يمكن أن تتهافت أو تعتمد على الأكاذيب ، ولها بجانب ذلك سندها من أصول الأديان وتعاليمها الإلهية ، وسنتها التى جرت على الزمان ، ولديها أيضا أكاذيب الشيوعيين أنفسهم وفساد دعاواهم ، وهو فساد يظهر فى كل حين على أعين الناس ، ويشاهد فى كل بلد تسللت إليه ، فلا يصعب الكفاح حيالها بعد أن شوهدت أفاعيلها وجربت ولمست لمسا ، وكان من المتعذر قبل اليوم ، حين بقيت الشيوعية طويلا محصورة فى ميدان الأفكار ، وأفق النظريات ، أن يتعرض خصمها لها تعرضا يكفى لإقناع الرجل العادى وارضائه ، ولكنها الآن وقد غادرت ذلك الميدان ، وانتقلت إلى الميدان العلمى ، أصبح فى الإمكان الحكم عليها أو لها ، والبت فى مدى فشلها أو نجاحها .

وهناك عامل آخر له مزاياه ، وهو أن الشيوعية لم تعد مقصورة على روسيا ، بل أخذت تتجاوزها إلى الغرب ، وكان كل نقد يوجه فيما مضى إليها ، يرد على روسيا وهى المرادة به ، فكان النقاد يتساءلون: ما بال الأكواخ فيها قائمـــة ، والعشش الحقيرة المهملة متوافرة ، والبوليس السرى لديها مرهوبا جائحا طاغيا ، ونظام الحزب الواحد نافذا ، ولا حرية فيها ولا صحافة طليقة من القيود .. ؟؟

فكان رد الشيوعيين على هذه الأسئلة قولهم: وماذا تنتظرون أن يحدث أو يتم من الإصلاح والتغيير فى خمسة وعشرين عاما أو ثلاثين، وكانت روسيا يومئذ متخلفـة عن أوربا بنحو مائة وخمسين سنـة ، وكانت الأكواخ فيها قائمة على الدهر كله ، والبوليس السرى على عهد القياصرة مستمرا يبعث الهلع ، ولم تعرف للديمقراطية طعما ولامذاقا فى يوم من الأيام ، فلا غرو إذا كان جواب الشيوعيين على هذا النحو ينطوى على شىء من الحق يؤيد جانبهم ويعزز الحجة التى يتذرعون بها ، ولـكن الشيوعية انتقلت اليوم إلى تشيكوسلوفاكيا مثلا ، وهى بلد ينتسب بحكم تقاليده وثقافته إلى الغرب قدر انتسابه إلى الشرق فى القارة الأوربية ، وكان زعماء الحزب الشيوعى فيها يتوقعون قبل انتقال العدوى إلى بلادهم ، كنتيجة للحرب الماضية أن تلجئهم أحوالها إلى الملاءمة بين مجرد التوفيق والاقتباس وما كادت الحرب تضع أوزارها ، حتى شرعوا فى العمل على هذا الأساس ، إذ كانت الفرصة يومئذ مواتيتهم ، ولسنا ننكر أن هدفهم كان الهدف ذاته الذى يرمى الروس إليه، أو يحاول بلوغه غيرهم من معاشر الشيوعيين

ولكن الواقع أنهم كانوا يعتمدون على أن الوسيلة المثلى هى استخدام الديمقراطية التى ألفوها فى بلادهم، حتى يتسنى لهم أن يطبعوا الشيوعية فيها بطابعهم الخاص فتكون « تشيكية» خالصة تمتاز عما عند الآخرين.

وما أن حل شهر فبراير من عام ١٩٤٨ حتى انتهى الأمر بالفشل، إذ قيل للشيوعيين التشيكيين إنه لا معدى لهم عن المطابقة بين شيوعيتهم وقوالب الشيوعية الروسية بلا تبديل ولا تحوير، لأنه لا يصح أن يلعب بلد تسيطر الشيوعية عليه لعبة « الحياة النيابية »، التى تنكرها البلاد الشيوعية الأخرى وتنسبها إلى مخلفات «البورجوازية» «البائدة».

وكذلك تمت فى تشيكوسلوفاكيا حركة « التطهير » فى شهر فبراير من ذلك العام وتحولت البلاد إلى دكتاتورية مكشوفة على النسق الروسى، وأهدرت جميع الحريات التى كانت تريد من قبل إطلاقها والاستمتاع بها، وأسىء استخدامها كذلك، مادام الأمر فيها للشيوعية والشيوعيين.

ولم يعد اليوم خافيا أن الشيوعية، سواء انتقلت إلى تشيكوسلوفاكيا أو إيطاليا أو فرنسا تحمل الأعراض ذاتها والمعالم عينها التى كان يحتج فيما مضى على أنها معالم الشيوعية الروسية البارزة التى نشأت من تخلفها عن العالم عدة أجيال، وتأخرها بضعة قرون، ولا تزال إلى اليوم معالم الدول الشيوعية الأخرى وأعراضها الظاهرة فى كل مكان.

وقد ألف دعاة الشيوعية أسلوبا فنيا فى دعاياتهم، وهو أن ينظموا حملات معينة للمناداة بمطالب تلوح فى ظاهرها معقولة، ومقصورة

على مصلحة العمال، وتوفير أقواتهم، وإزالة قلق المستقبلين، وإنزال السكينة على نفوسهم، ولكنها فى الواقع ترمى إلى أهداف أخرى لا يراد بها غير خدمة الشيوعية ومصلحة قضيتها.

فاذا استطاع الناس على أساس تجاربهم الماضية أن يفهموا هذه المقاصد على حقائقها حبط ما يصنع الدعاة الشيوعيون وساء سبيل المروجين منهم والمضللين.

وليكن رائدنا فى تحطيم وسائلهم أن ندرك حق الإدراك أن نجاحهم إنما يقوم على جهل الناس بدقائق هذه الوسائل، وخافية هذه الأساليب.

الفصل العاشر

الأسرة والبيت

ألا ترى إلى الأكاذيب الصارخة التى تنطوى عليها النظريات الماركسية بشأن الزواج، والأسرة والبيت، فقد ظهرت أضاليلهم فيها عمليا إلى حد جعل الدعاة الشيوعيين لا يوردون اليوم لها ذكراً فى دعاياتهم العامة، ولكنها مع ذلك لاتزال جزءاً أساسياً من تعاليمهم.

فقد أفرد «جالاشر» فى كتابه المعروف «قضية الشيوعية» بابا قائما بذاته للحديث عن «الحياة المنزلية»، ومضى فيه يقول: إن الزواج والأسرة فى أوساط العمال يعدان بمثابة أساس كل ما هو طيب،

وجوهر كل ما هو مطلوب مرغوب فيه ، ولكنهما عند المبتدئين أمران تحيط « القدسية » بهما ، ولكن هل من عجب أن نشهد فى كل نظام اجتماعى يسوده القلق لتفشى الفاقة فيه ، أو احتمال تفشيها ، وينكر فيه على خلق كثير الحق الأول فى العيش تحت سقف بيت صالح ، ومسكن مقبول ، كيف ينتهى الزواج فى الغالب الأعم بشقاء الأزواج وبدارهم إلى المحاكم للظفر بالطلاق والانفصال . . ؟؟ »

وليس من شك فى أن الكاتب قد صاغ هذه الفقرة من كلامه فى عبارة بالغة التحفظ وكلمات وفق فى اختيارها أشد التوفيق ، فقد راح خلالها يستثير العطف والترغيب فى الزواج أو تكوين الأسرة بقوله إنها « أساس كل ما هو طيب ، وجوهر كل ما هو مطلوب مرغوب فيه » أو وصفها بأنها « مقدسة » دون أن يلتزم رأيا صريحاً أو يبدى وجهة نظر معينة .

وقد رأيناه بعد ذلك فى كتابه لا يستطرد فى هذه المشكلة الاجتماعية التى عرف « انجلز » خطرها فأفرد لها كتابا على حدته ، وهو « منشأ الأسرة » ، وأدرك كارل ماركس ذاته بالغ شأنها فعرض كثيرا لها فى مؤلفاته .

ولعل سر إقلال الكاتب من الكلام عن رأى الماركسيين فى الأسرة أنه خشى فى كتاب وضعه للعامة أن يتوسع فى عرضها بعد أن بدأ الحزب الشيوعى يتوخى الظهور بمظهر محترم ، واتخاذ سمت الاتزان والوقار ... ولكنه بالعدول عن العرض الوافى إلى الكلام العام ، والإشارات العابرة ، أراد الايحاء إلى الناس بأن الماركسيين هم حراس

الحياة المنزلية وحفاظها الثقات دون ايراد شيء يتنافى مع الماركسية أو يتعارض مع تعاليمها فى هذا السبيل .

ولكن من الخير أن نبحث فى موقف الشيوعية فعلا من الزواج وحياة الأسرة .

ولا يخفى أن الأسرة بمعناها الوافى لا تستكمل بغير ذرية وبنين ، فلننظر ماذا أراد لها معاشر الباحثين الماركسيين ، ولنرجع إلى ما جاء فى « الف باء الشيوعية » ، أو الأبجدية الشيوعية ، فقد ورد فيها قولها « إن من أهم الأهداف التى تسعى الدولة « البروليتارية » فى تحقيقها تحرير الأولاد من النفوذ الرجعى الذى يستخدمه الآباء ...

وقد رأينا كلام المفكرين الماركسيين عن « الأسرة » واضحا كذلك كل الوضوح ، فقد عرف عنهم قولهم إن الزواج « البورجوازى » هو ضرب « مشروع » من « البغاء » ، وإن « انجلز » وصف الأسرة بأنها ذلك المركب المزجى من « العاطفية » و « الصراع المنزلى » كما وضع كتابا يبين فيه أن الأسرة إنما ترجع من حيث النشأة إلى دور قديم ، من أدوار البشرية البدائية ، ومرحلة من مراحل التطور البعيد فى التاريخ وأنه يريد بعون الشيوعية القضاء عليها والتعفية على آثارها الباقية .

وإذا كان صاحب كتاب « قضية الشيوعية » ، قد ترك القارىء يفترض أن الشيوعية ترى الطلاق « مأساة » ، فقد زادت الماركسية هذا القول جلاء ، إذ يقول « انجلز » : إن المحبة اذا انتهت بين الزوجين أو استعيض عن العلاقة الزوجية بحب جديد فمن الخير لهما وللمجتمع كذلك أن يكون الانفصال ، حتى لا يضطر الأزواج الى الانغماس

فى حمأة القضايا وخوض الأوحال والطين الى المحكمة والقضاء لطلب « الطلاق » .

والآن ، بعد هذا الذى وعيناه من تقرير انجلز، لنرجع بالقارىء الى ما أورده « جالاشر » فى كتابه الذى أسلفنا ذكره بصدد هذا الأمر ذاته ، لنرى ماذا يقول عن الأسرة فى رأى الشيوعيين :

لقد ذهب فى إيجازه المقصود يقول : « إن الاشتراكية ستكفل لكل فرد الأمان ، وتضمن المساواة الاقتصادية والسياسية للنساء ، وهذا أمر من شأنه أن يجعل الأسرة تتطور من البداية كوحدة بين فردين متساويين ، وحسب هذه الوحدة بينهما أن تكفل فى ذاتها أساسا للسعادة والرفاء ، فتصبح النساء عندئذ قادرات على أن تساهم فى الشئون العامة على قدم المساواة مع الرجال ، فيعيش الزوجان كرفيقين ، ويعملان معا فى سبيل تقدم الجماعة ، ثم تأتى عناية الدولة بالذرية والأولاد، وتشجيع الأسرة على الإكثار منهم، وتلك هى أمنية الكافة إذا وثقوا بما يكفل لهم العيش هم وأبناءهم المتكاثرين ...

هذا هو مايقوله « جالاشر » فى كتابه ، وهو على ظاهره لايبدو سيئا ، ولكن التفكير فيه لحظة واحدة يرسم أمام الخاطر صورة أسرة لاتقيم الأم فيها ساعة فى البيت ، بل أبداً فى المصنع ، أو مشتركة فى الشئون العامة ، ولا الزوج أيضاً ، لأنه منشغل الانشغال ذاته ، ولا الأولاد كذلك ، لأنهم عند الدولة فى ملاجئها ومحاضنها ومراضعها المتعددة . . !

وإليكم فقرة من أقوال « انجلز » عن « البيت » فى النظام

الشيوعى ، وهى أقوال أقام « جالاشر » على أساسها النظرى استنتاجه الخيالى الزاهى الألوان .

يقول « انجلز » : إن التدبير المنزلى سيتحول إلى صناعة اجتماعية ، فتنتقل العناية بالأطفال وتربيتهم إلى الدولة ، وتصبح من الأعمال العامة ، لأن المجتمع هو الذى سيرعى أمرهم ، سواء أكانوا شرعيين أو لم يكونوا كذلك ، وهذا من شأنه أن يزيل كل قلق من جهة « النتائج » ، وهى اليوم أهم عامل أدبى ومادى يمنع الفتاة من أن تهب نفسها لمن تحبه ،

أفلا يكفى هذا فى إباحة الاختلاط الجنسى وحمل الرأى العام على التسامح فى مسألة « العرض » والشرف ، والشين والعار على حد سواء .. ؟

وقد أثبتت تجربة الشيوعيين أنفسهم للتعاليم الماركسية بشأن البيت والأسرة خطأها الجسيم ومدى الشقاء الذى تجلبه على الناس إذا هى عممت فى العالم وأصبح تطبيقها شاملا ، فقد رأينا الروس عقب الثورة البلشفية يطبقون هذه التعاليم النظرية فعلا بإصدار تشريع جديد يحل الروابط الزوجية المعقودة فى الكنيسة ، وبتيسير الطلاق ما أمكن والتشجع على « الإجهاض » والتخلص من الحمل ، وهى جميعا فى صميمها تعاليم ماركسية ، ولكن هذه التجربة لم تلبث فى أقل من عشرين عاما أن أدت إلى حالة بشعة أصبح فيها الطلاق كما اعترفت الصحافة الروسية ذاتها فى ذلك الحين أكثر إلى حد بعيد من حوادث الزواج الذى تعقده الدولة وتيسره تيسيرا ، بل حالة أمسى فيها عدد الأجنة الميتة بسبب الإجهاض يفوق كثيراً عدد المواليد ، وتبين يومئذ أن الناس لا يزالون

رغم الثورة غير متفقين إلى الحد الذى تتطلبه المثل الماركسية ، وأنهم على هذا النحو يهددون مصير الدولة ذاتها بخطر عظيم ، ولهذا أبطلوا العمل بهذا التشريع ، وشرعوا فى تنظيم حملات يدعون فيها إلى الزواج « الثابت » والاكثار من البنين ، وإن ظلوا فى روسيا يلقنون أعضاء الحزب الشيوعى النظريات الماركسية الأولى ، وينادون بها فى العالم كله ، وظهر بجلاء أن الأخذ بها فى روسيا وضع « على الرف » إلى حين كمظهر من مظاهر السياسة الشيوعية الجديدة التى تقوم على مراعاة « الظروف » ومقتضيات الأحوال .

ولكن لا يحسبن أحد أن هذه الأفكار الخطرة المدمرة بسبيل البيت والأسرة وقف على معاشر الشيوعيين وحدهم ، لأن الواقع أنها شائعة اليوم فى أكثر بلاد الله ، وحتى بريطانيا ذاتها التى ينزع أهلها إلى الجمود ، وإن عواقبها ونتائج الأخذ بها ظاهرة فى كل بلد وهى الشقاء والدمار ، بل أسوأ من ذلك وأفجع ، أن هذه النتائج مسطورة بأحرف من نار فى حياة الأولاد ومصاير البنين ، وهم ضحاياها وفريستها الدامية .

وانما الحقيقة أن « الماركسية » أبت الا أن ترتفع بهذه الأفكار الأثيمة المضللة الى مرتبة « العلم » ووصفتها بأنها « الوعى » الاجتماعى الجديد ، وأوصت الناس باتباعها كأسلوب سديد حكيم فى الحياة .

ومن الماركسيين انتقلت فتنتها وسرت فى كل بلد ومشت فى أوساط وبيئات بعيدة من الشيوعية وأصبحت هذه النظريات بمثابة وسيلة طمأنينة وعزاء لمعاشر الذين لا يزالون فى قلق ومخافة من تطبيق الأفكار

الحديثة عن الزواج والبيت ، مادامت لها فلسفة عند الماركسيين تؤيدها وسند يبررها كل التبرير .

وهنا ينبغى لعلماء الدين أن ينهضوا لتدميرها ، وترتفع أصواتهم بشرح تعاليم أديانهم من حيث قدسية الرابطة الزوجية وحرمة الحياة البيتية ، ومكانة « العرض » والشرف والحفاظ من التقديو .

هنا ينبغى لعلماء الدين أن يحدثوا الناس عامة ، من فوق ذوائب المنابر ، وعلى الملأ جميعاً ، عن واجب الأبوة ، ومجد العشيرة ، وطهارة البيت ، فى غير تراخ أو استسلام أمام هذه التيارات الشيوعية الجارفة التى تريد أن تكتسح كل مايعترض طريقها من سلطان .

لقد أصبحت الحياة الزوجية فى أيامنا هذه ، مفككة واهية الخيوط واستبدت « الإباحية » بالناس استبداداً ، وعرمت الشهوات حتى طغت على الأقيسة القديمة لمعانى الزواج وكيان الأسرة وشرف البيت ، وقدسية الأبوة ، وتأمين مصائو البنين .

وقد لبثت هذه « العصرية » الأثيمة أعواما طوالا مطلقة باغية ، بل لقد رأيناها تستخف بالقوانين التى حاول المشترعون بها تنظيم الزواج ، وحماية الأسرة ، وتمعن فى مغالطتها ، وتتلهف على التخلص من قيودها ونصوصها « وحرفيتها » ، ولاتزال تجد فى معاشر المنافقين بالعلم ، والمشتغلين بالدجل ، والمفسرين للأشياء مختلف التفاسير ، سندة لها ، ومشجعين على اثمها ونكرها ، فى غير خوف من مؤاخذة ، ولا خشية من عقاب .

فليتقدم الدين اليوم لمواجهة هذا التحدى من جانب الشيوعية فيما يتصل بالزواج والبيت والأسرة ، ومناهضة هذه « الجاهلية » الجديدة بكل قوى الروح ، وسلطان الإيمان ، ليدرك هذا الجيل فساد هذه التعاليم التى كان آباؤهم يستعيذون بالله منها ، ويستنكرونها أشد الاستنكار إذا ما رأوا أثيما يعمد إليها ، أو أخا شر وجموح ، وشهوة طاغية يقدم يوما عليها غير مبال بالعاقبة ، والتى توسع الشيوعيون فيها أخيرا وأسرفوا فى تطبيقها مستهترين .

لقد حان لعلماء الدين ، مسلمين ومسيحيين ، أن يعالجوا هذه المشكلة الاجتماعية ، فلا يكتفى فى علاجها بالكلام والجدل الفقهى ، والوعظ المألوف ، بل ينبغى أن يشمل العلاج الدراسة المتقصية والتغلغل فى فهم الماركسية من هذه الناحية الاجتماعية لا براز قدسية « الأسرة » فى صورة اخاذة ومثل عليا ، وقوة روحية تنفذ إلى أعماق القلوب ، وتقنع مئات الألوف من المخدوعين ، والمتراوحين ، بين العصرية « المغرية » والتعاليم الدينية المحيرة ، ووساوس الحضارة المادية القائمة .

وقد أثبتت التجارب والمشاهدات أن خطر الشيوعية من هذا الوجه هو أدهى اخطارها وأن مساويها منه أبشع المساوى . وإن كانت الكنيسة المسيحية قد وقفت حيالها وقفة مستبسلة ووافقت على قدسية الحياة الزوجية وعصمتها من كل دنس أو استهتار وبق أن نشهد ما يفعله علماء الإسلام وحراسه ، لاننا قد تخلفنا فى كل شىء عن الغرب ، حتى فى الذود عن تعاليم ديننا وأصوله وهى فى ذاتها وجوهرها تحمل أساليب الدفاع ومطالب التحصين .

الفصل الحادى عشر

الكره والحب

وانظر إلى اعتقاد الشيوعية أن الكره هو وسيلتها إلى خلق عالم جديد ، حتى لا تكاد تسمع فى أنديتها وأوساطها كلمة « حب » إلا إذا أريد بها المعنى « الجنسى » دون سواه فهى لا تدخل فى قاموس الماركسية .

وفى ذلك يقول « دوجلاس هايد » وهو شيوعى كبير كان يتولى توما رياسة تحرير صحيفة « الديلى ورکر » الشيوعية فى بريطانيا ، ثم خرج من الحزب ضجرا متبرما حين ذهبت الغشاوة عن عينيه « اننى لم أسمع طيلة العشرين عاما التى قضيتها عضوا فى الحزب هذه الكلمة « الحب » تقال مرة من فوق المنابر العامة ، ولا فى الأحاديث الخاصة بين الأعضاء وأنا نفسى لم أستخدمها فى كلامى ولا فى كتبى ورسالاتى ، ولكنا جعلنا نكثر من كلمة « الكره » وكنا نقول غالبا ، إننا أحوج ما نكون فى هذا العالم إلى كره قوى شديد حكيم ، ورحنا نخلق هذا الكره خلقا ، ونوزعه توزيعا ، ونصرفه فى وجوهه التى نرى وجوب تصريفه فيها لنقيم النظام الاجتماعى المنشود .

لقد كنا نحاول جاهدين إثارة الكراهية « الطبقية » على أمل أن نتمكن من ايقاظها وتغذيتها وتحريشها فى سبيل ايقاذ نار حرب أهلية لقد آمنا بالكره وجعلناه شعاراً لنا .

وقد فعل النازيون ذلك ، وعرفنا أخيرا إلى أية هاوية ساق الكره بهم ، فقد اعتقدوا كما يعتقد الشيوعيون أن النظم الجديدة يمكن أن تقام بقوة الكره ، فلم ينته هذا الإيمان بهم إلى إقامة نظام جديد ، ولكنه انتهى إلى خراب مدائن عدة فى أوروبا ودمار برلين ذاتها .

لقد كنا نعتقد فى حظيرة الحزب الشيوعى وندواته أن الكراهية « الطبقية » هى أقوى « دينامو » فى العالم ، وأنها هى التى أحدثت الثورة الأولى التى نبت منها التقدم الحاضر والتى يصح أن ينبعث من شعلتها واتقادها ما ننشده غدا ونحلم بتحقيقه .

ولكن الكره سلاح واهن النصل هش . وقد استطاع على وهنه وهشاشته أن يجلب على النازية « الدمار » ويوردها شر الموارد ، وقد رأيناه اليوم يرد على فريق كبير من زعماء الشيوعية الذين أطلقوا فيض الكراهية وطوفانها العرم الذى أقام الجمهوريات السوفيتية واتحادها ، بل شهدناه ينقلب عليهم أخيرا فاذا هم مغيبون فى المحابس أو مسوقون إلى ساحة الإعدام أمام جلاديهم الذين كانوا لهم بالامس القريب « رفقاء » ، فى سلاح الكره والبغضاء .

ولسنا ننكر قولهم إن الكره « دينامو » ، فليس فى ذلك من شك ، بعد الذى شهدناه بأعيننا ، بل فى الحق هو « دينامو » مخيف رهيب ، ولكنا شهدنا أيضا كذب الإيمان به كقوة تجلب السعادة إلى الإنسان ، وترد على الناس فى النهاية أحسن مرد .

والواقع أن الإنسانية قد ملت هذه البغضاء المنظمة أشد الملالة ، وضاقت بها كل الضيق وبشم بها جيلنا الحاضر كل البشم ، وقد آن للعالم

أن يفهم ، وهو اليوم موشك أن يتبين الخدعة ويدرك الضلة ، أن البشرية لم تعد بحاجة إلى هذا « الغد » الذى يمنيها به لينين وأصحابه ولكنها بحاجة إلى دعاة « الحب » أولئك المؤمنين بأنه هو وحده القوة « الدينامية » العظيمة التى تكفل للناس ما هم ناشدوه من الخير والحياة الطيبة فى هذا العالم ، وإذا كان « الحب » ، أقل من « الكره » بطولة وإقداما فهو لا يزال ضروريا مثله ومستوجبا ، لأنه الوسيلة المثلى لجبر القلوب الكسيرة، وإصلاح الحياة المختلة ، ومعالجة المعيشة المريضة الواهية .

ويجب أن نردد هنا القول بأن الناس يعيشون فى أيام خطرة ، ولكنها أيضا أيام فرص سانحة، وظرف مؤات ، وليست هذه الفرص التى تهيئها تجربة الأفكار الباطلة وكواذب تعاليمها سوى فرص فريدة يجب على الناس أن يتناولوها بكلتا اليدين ، أو يعضوا بالنواجذ عليها ويلتقطوها التقاطا . ولو فعلوا لوجدوا بعد قليل حصادا طيبا يرتقبهم وكانوا لا يحلمون من قبل بمثله ثمرا جنيا .

أما إغفال هذه الفرص وتركها تنسرب على أعيننا فهو الخطر الماحق والكارثة الساحقة لأن فرصا مثلها قلما تسنح فى حياة الافراد وتاريخ الأمم .

الفصل الثانى عشر

ردود إيجابية

ولكن الردود التى ينبغى أن نوجهها إلى الدعاية الشيوعية يتحتم أن تكون « إيجابية » لاسلبية ، بل من المتعين علينا أن نقابلها بدعاية « إيجابية » أيضا ، لأنه لا يكفى أن نقول إن هذا البلد ضد الشيوعية وذلك القطر « مناهض » لها ، بل يجب أن يقال أيضا إن هذا البلد « مناصر » لعقيدة ما . وذاك ظهير فكرة ما ، ولعل الدين فى هذه الناحية يحتل مكانا فريدا ، ويشغل موضعا خاصا ، ويملك سلطانا مبينا إذ فى وسعنا أن نضع حيال الدعاية للنظام « الشيوعى » الدعوة الصادقة المؤمنة إلى « نظام اجتماعى فاضل » ليكون الكفاح بين النظامين قائما لا هوادة من جانب الإيمان فيه .

ولسنا نقول بنقل التعاليم الدينية الصرف إلى الحومة ، وحشدها جميعا بحذافيرها فى النضال ، ولكننا نقول بوجوب « الاجتهاد » لتصريفها فى أسهل مأخذ ، وأيسر طريقة ، والتوفيق بينها وبين مطالب الحياة فى هذا العصر المادى الخبيث .

نريد أن يحشد الدين قواته « الروحية » لا نصوصه الحرفية وحدها إذ لسنا بحاجة إلى الفقهية « المتشعبة » ، أو ما يصح أن نسميه « الناحية الفنية » من الدين ، وأنما نحن أحوج مانكون اليوم إلى

عناصر ، الأخلاق ، وجواهر الإيمان واليقين وروح الفضيلة ذاتها ، لاعناوينها الخلابة ، وقوائمها الزاهية .

ونحن نستطيع أن نجعل الناس يتبرمون بالدين ، ويسأمون الفقه ، ويمقتون الصراع النظرى بين المناطقة والفقهاء والجدليين ، وينصرفون عن معارك الكلام ضجرين ، ولكنا نستطيع أيضا أن نجعلهم يسترْوحون إلى الدعوة الدينية المستغنية بجوهر الإيمان ، المنادية الناس إلى البداهة ، المتحدثة إليهم فى منطق المعقول والمقبول والمجتذب الحافز إلى الوضى والتصديق واليقين .

إن فى الدين — إسلاما كان — أو مسيحية — سماحة بديعة ، ورفقا ينظر إلى الضعف الإنسانى ورأفة تدرك أن الإنسان خلق ضعيفا وكفورا ، وهلوعا ، وكنودا ، وما إليها من الصفات التى ذكرتها الأديان عن هذه البشرية وغرائزها وطبائعها المتعددة ، وإن هذا الرفق الإلهى هو الذى يجعل الحياة خليقة بأن تحيا ، والعيش فى هذه الدنيا جديرا بأن يعاش .

وما نحسب فى هذه الأديان السمحة غلوا لا نطيقه ، أو تطرفا لا قبل لنا به ، أو حدودا واحكاما لا تقر النظم الاجتماعية الحاضرة ، على ما يشوبها من علل عارضة ، وعيوب تقتضى العلاج والإصلاح ، أو لا ترتضى الأنظمة الاشتراكية السديدة التى يسكن إليها الكافة ، وتطمئن بها حياة الدهماء ، ولكنا على يقين أن هذه الأديان نافرة أشد النفور من الذين يريدون استغلال هذه المساوىء والعيوب كالفاقة والجهل والمرض والظلم وسوء التوزيع ، لكى يقضوا

على الإيمان ويدمروا فى الأرض ملكوته ، ويحيلوا الإنسانية ملحدة زنديقة كافرة .

إن التسلح بهذا الإيمان « الجديد » ، أو الدين فى جوهره السمح ورسالته الهادية الرفيقة الحانية ، كفيل دون شك بصد خلق كثير من الأطهار والأخيار عن الذهاب إلى حظائر الشيوعية وأوكارها وهم فى الجملة قوم لايلتمسون ماهم فى لهفة حارة عليه من « المثل العليا » عند الدين لأنهم لايأنسون إلى أهله ، ولايجدون عندهم شفاء صدورهم وسكينة أخلادهم ، وإنما يلتمسونها عند نظرية مستحدثة . أو فى تعاليم مصنوعة ، أو مذهب خلاب جديد ، كما يبحثون عن هدف ، واتجاه وإيمان ، ولكنهم لا يجدون عند الأولين من الأخرى بديلا تتوافر فيه القوه والحجة والتأثير النفاذ إلى موضع اليقين .

وبهذه الوسيلة نستطيع أن ننقذ ألوفا مؤلفة من هذا الإلحاد الأثيم وهذه الوثبة المناضلة وألوفا غيرهم ممن أضاعوا صفوة شبابهم ، وأنضر أعوامهم فى حظيرة الشيوعية وخلاياها ، ولن يشق الكفاح حيالها ، لأن أكثر مافى تعاليمها يتنافى مع مبادىء الأخلاق ، ويدنو من حدود « الإباحية » ، وإن كان القليل فيها صالحا للتحسين والتهذيب .

ورب قائل : إن الدين و « فن التنظيم » لا يجتمعان ، لأن الدين تعوزه الطريقة ، وتنقصه الأساليب ، ويتورع عن المداورة الفنية التى قد يرتضيها معاشر الاجتماعيين .

ولكن هذا القول ليس صحيحا ، لأنهما يجتمعان ، أو فى الامكان أن يجتمعا ، إذا وجدنا للدين قوما « مجتهدين » وعلماء محدثين ، وأتقياء

للدين مخلصين ، لا يمنعهم شيء عن التوسل بكل أسلوب ، والتذرع بكل فن وطريقة ، إذا هي لم تتعارض والفضيلة ، ولم تتناف ومبادىء الأخلاق .

الفصل الثالث عشر

رسالة الدين

ولعل موضع الغرابة في أمر الذين يتجهون إلى الشيوعية ويتسللون إلى خلاياها ، ويتطلعون إلى الانحراط في « كادراتها » ، أنهم في الجملة قوم لم يؤتوا العلم بأهدافها ، أو أخلياء أحيانا من معرفة غايتها ومطاوى فكرتها وتعاليمها ، ولكنهم يذهبون إليها بدافع السخط على الظلم ، والشغف بالعدالة ، ويترامون على صفوفها ، لتشبع نفوسهم القلقة بالأفكار الانسانية ، ومبادىء الرحمة ، والرثاء للمعذبين والمضطهدين

وهذه جميعا دوافع كان أولى بها أن تجذبهم إلى الدين ، لأنها من خصائصه ، وفي حدود سلطاته ، ولكن أولئك الأفراد المتبرمين أوتوا فكرة عن الدين تصرفهم عنه ، وأهله قد أحسوا هذه النفرة القائمة في أعماق النفوس ، ولم ينهضوا لإزالتها لاختلاط الايمان عندهم بما يوهن من قواه ، ويذهب بسلطانه العام .

لقد تدافع هؤلاء الحسنو النيات إلى الشيوعية ، لا عن كراهية في الدين ، لأن الفكرة التي تساورهم عنه لا تبلغ الكراهية ، ولكن عن حب لبني الانسان ، ولن تجد فيهم أناسا يستطيعون أن يقولوا

إنهم انضموا إلى الشيوعية بعد دراسة عميقة وافية لتعاليمها ، وبحث شامل لنظرياتها وجزئياتها ، أو أنهم أقروها نتيجة الدرس، ووافقت أفكارهم وأحاسيسهم ثمرة التقصى والتحقيق .

ولكنهم فى الجملة أحبوا الانضمام إلى صفوفها ، لأنهم طلاب أمثلة عليا وأخوان خيال ، وباحثون عن « ايديالزم » ، وتلك لهفات لا تلبث أن تجد ذاتها مُسْرَجَة مشدودة إلى عجلة « الحرب الطبقية » التى يشنها معاشر الشيوعيين .

وكان ممكنا أن لا يدخل هؤلاء حظيرة الشيوعية مطلقا لو أن غيرهم فكروا فى تنظيم حملات قوية للقضاء على دعاياتها ، ومنعها من استغلال صدق نياتهم ، والانتفاع بنزعاتهم الإنسانية الخالصة ، فقد كان ذلك أحق وأولى بالتبرير .

وقد رأينا « دوجلاس هايد » فى مذكراته يقول إن أحد الشيوعيين الذين يتولون التنظيم فى شرق لندن جاءنى وأنا رئيس تحرير صحيفة « الديلى وركر » يطلب منى أن أخصص « مخبرا » لمساعدته فى حملة دعاية يتولى تنظيمها بين سكان الحى وأهله وكانت صحيفة الحى قد نشرت تحقيقا لمقتل صبية وهى تلعب بين خرائب بناء هدمته قنابل الغارات الألمانية وكانت منيتها على أثر سقوط الجدران المتداعية فوقها .

ولم تلبث أن ظهرت فى الحى كله بوادر حملة منظمة ترمى إلى رفع « عرائض » يطالب فيها موقعوها السلطات المحلية باقامة « أسوار » حول الأبنية المهدمة كلها ، وكان أبو الصبية القتيل على رأس الموقعين ،

وتلاهما الجيران الأقربون ، وتبعتهم فى توقيع العرائض كل أم كان فؤادها منخلعا ، وهى ماضية فى عملها ، تسائل خاطرها من القلق أين ترى ولدها أو صبيتها لا عبة فى تلك اللحظة بذلك الحى الذى خلا من المتنزهات العامة وأقفر من الرياض .

وإذا بوفد من الشيوعيين يتقدمون كدأبهم فى استغلال المواقف والانتفاع بالظروف لتنظيم حملة استغلال للحادث ، وكان الوفد مؤلفا من أربع نسوة عاملات ورجلين يشرفان على توجيهه الوجهة الشيوعية المطلوبة .

ولم يلبث المجلس البلدى أن أستجاب لمطالب الوفد وبدأ العمل فى تسوير الخرائب والأطلال .

وكانت النتيجة انضمام أعضاء جدد إلى الحزب الشيوعى ، وزيادة يسيرة فى عدد قراء « الديلى وركر » ولم ين الحزب أن أنتقل الى المسألة التالية فى جدول أعماله ، ونسى وشيكا الصبية القتيل التى استغل حادث مصرعها الأليم لمصلحته .

ولكن من ذا الذى يلوم الشيوعيين على ما صنعوا ، واللائمة فى الحق أولى بها أن تقع على غيرهم من أهل ذلك الحى وشبابه الذين تركوا هذه المسائل الإنسانية ولم يعنوا بها ، فبادر الشيوعيون إليها فاستغلوها على هذا النحو الذى رأينا ، ولسنا نحسب أحدا فى الحى كان أقدر على تناولها من معاشر المسيحيين الأتقياء فيه ، ولكنهم للأسف لم ينظموا فى هيئات أو جمعيات تتولى هذا العمل وأمثاله ، وتحصر فيها نشاطها وحماستها وإيمانها المكين .

وفى الحق إن الجهاد فى سبيل رفع الظلم ، وإقامة منار العدالة ، وتنظيم جيش الفضيلة أنما تقع تبعته على هذا الفريق بل هم الملزمون بها الزاما ، وهى دين فى أعناقهم ، ورسالة هم مكلفوها ، وفرض عين هم مؤدوه .

أما الماركسيون فان كل ظلم واقع هو عندهم مادة استغلال ، ووسيلة صالحة للدعاية وليس شأنهم فيه شأن مصلح يحارب المظالم ، ويريد الاصلاح ما استطاع ، ويبغى تحسين أمر الجماعة ولكنه شأن المنتفع بها لتزداد سوءا ، ما دامت الشيوعية تتغذى منها ، وتجعل كل اعتمادها عليها وترجو أن تتفاقم وتستفحل ، لأن فى تفاقمها واستفحالها فرصا مواتية ومجالا فسيحا لحملاتها الأثيمة المؤذية .

ولسنا مغالين إذا قلنا إن الشيوعيين إنما يستخدمون الظلم الاجتماعى ليوطدوا أركان شيوعيتهم ويثبتوا فى البلاد أقدامها ، لأن ذلك هو كل ما يهمهم منه ، ويعنيهم من تفاقم سوئه ، حتى ليحذر الحزب الشيوعى جميع رجاله من الانسياق مع طلاب الاصلاح الاجتماعى والاندفاع بحماسة فى طلبه ، حتى يصبح لهم هدفا ، ويمسى فى ذاته غاية لا مجرد أداة للثورة ، ووسيلة للتهييج والتحريش وإشاعة الفوضى والفتن بين الناس .

ولكن الكافة ذاتها تطلب الاصلاح ، وأهل الجيل الحاضر جميعا ينشدونه . وإن لم يحفل به الشيوعيون أو يكترثوا ، فهو إذن مطلب حق وسؤال مشروع ، وإن كان تحقيقه سيترك مشاكل عصرنا الحديث قائمة تعز على المعالجين .

إن هذا الجيل هو المعنيّ الأول بالمادية المستشرية فيه ، فهى مشكلته والأمر الأوحد الأخطر الذى يواجهه ، ولن ينكر من أهله أحد أننا قد انحرفنا كثيرا عن طاعة الله كما كان أسلافنا يعرفونها وأمعنا فى الكفر والزيغ حتى جاوزنا الحدود ، وأمسى فريق كبير منا مجردين من « الروح » ماديين مفرطين فى الولوع بالمادية ، مستخفين بكل بحث يدور على أسماعهم فى شىء من العاطفة ، أو قريب من الدين ، لأنه بحث يجرى بلغة لا يفهمونها ، وكلام انصرفوا عن أدراك معانيه معرضين .

أما مسائل الأجور والمرتبات ، والمساكن ، والأغذية ، والأسعار والسوق ، والنقد ، والاقتصاد ، فتلك مسائل يفهمون منها الشىء الكثير وهم بشئون الحياة اليومية خبراء .

وليس من شك فى أن المجال أمام رسالة الدين اليوم فسيح ، وأن علماءه ينبغى أن لا يسلموا فى شىء لمعاشر الماديين ، بل ينبغى أن يعلنوها عليهم حربا شعواء ، لا مصانعة فيها ولا رياء فذلك جوهره ولباب الايمان به .

لقد رأينا الكاردينال « جريفن » يرفع الصوت مرارا منددا بسوء الأحوال فى مساكن الفقراء ومناديا بأن يكون بناء المساكن الصحية النظيفة فى مقدمة مشروعات الاصلاح والعمران وليس من شك فى أنه كرجل دين ، وزعيم من زعماء الكنيسة ، أحق من سواه بالحديث فى هذا الشأن وسواه مما يمت إلى مختلف وجوه الاصلاح الاجتماعى ، لأن رجال الدين هم الذين طالما نادوا بقدسية البيت ،

ومكانة الأسرة ولا يخفى أن الأسرة تقتضى مسكنا ، وإن كانت المساكن لا تعنى فى كل الحالا بيوتا ، ولا تنصرف معانيها إلى العشيرة والحياة « العائلية » .

وفى الأعوام الأخيرة لم نشهد أحدا أكثر حماسة فى المناداة باصلاح البيت ، ورفع أجور العمال من « البابا » والكرادلة الكبار ، ولم يغضب فى الناس أحد مثل غضبهم على الرأسمالية والظلم الاجتماعى فى أبشع صوره ، والغيرة على الفقير والعامل المحدود ، فقد لمس رؤساء المسيحية الواقع ، وعرفوا أن هذا الكفاح جزء من رسالتهم الدينية ، وبعض تعاليم المسيحية ، وإن عند الدين عن هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة الجواب .

ولكن لا يكفى فى أمر جلل كهذا أن نقنع بالدعوة ، ونرتضى القول والنداء ، وإنما يجب العمل ، والتمرس ، والتنفيذ ، بل يجب أن تكون المشكلة الاجتماعية فى مقدمة رسالة الأديان وفريضتها المقدمة على كل اعتبار .

لقد حان أن تحتشد الأديان لمعركة حاسمة حيال الماركسيين ، والاستعانة بالتضافر والتضامن والتنظيم على إيجاد حلول للمشاكل المشتركة التى تتصل بالصناعة ، والسياسة ، والاجتماع .

خذ الصناعة مثلا ، نجد أن القائمين برسالة الدين لم يعالجوا إلى اليوم شيئا من شئونها ولا أبدوا عناية بأحوال الصناع فيها ، ولا أدخلوا مشاكلها الحادة فى حسابهم ، كأنما ظنوا أن المسائل الصناعية لا علاقة لها بالأديان ، وأن البحث فيها من شأن الساسة والحكام ،

ودراستها تختص بأصحاب العمل والعمال والنقابات وسواهم من الباحثين الاجتماعيين .

ولكن المسائل المتصلة بالنظام الاجتماعى داخلة فى عصرنا الحديث فى صميم الحياة ، وهى المنفذ الذى تتسرب الشيوعية منه ، ومسرى الماركسية إلى طبقات الكادحين ، فلا معدى للدين عن حشد قوته لمواجهتها ، وحصر همه فى حل معضلاتها ، لأن الدين لا يقتصر على العبادات وليس حسبه الصلوات ، والنداء إلى الحرص على أداء الزكاة ومطالبة الناس بالفرائض والواجبات .

ليس الدين شعائر وطقوسا ، ولكنه أوسع من ذلك مدى ، بل هو الذى ينبغى له أن يشرف على الحياة العامة ، ويحل العقد المتشابكة فيها ، ويسوق الناس إلى دنيا أفضل ، وعالم أدنى إلى الخير والسلام .

ولا نحسب السياسة أيضا خارجة عن اختصاصه ، لأنه يجب أن يقف بجانبها ، ستاراً للحكم العادل ، ونصرا للحاكم الرفيق ، وظهيرا للسلطة الحريصة على خير المحكومين .

أفلم يبن للدين أن يخرج من النطاق المحدود الذى رضيه لذاته ، وقنع به لنفسه ، ليكشف للغافلين عن قدسيته ، ويدلل على أنه الحريص على التقدم بالبشرية إلى العدالة العامة ، والرفاهية المنشودة ، والقسطاس المستقيم .

لقد حاولت الشيوعية أن تكسب الأرض فى النزاع القائم بين أهل الصناعات والصناع ، والتحريض على قلب النظم العمالية ، وإثارة الفتن فى دور العمل والمؤسسات ، ولكنها فشلت فى هذا المعترك الخطر ، على فرط تجربتها ، وخبث أسلوبها وطريقتها ، وامعانها الظاهر فى هذا السبيل .

وقد قوبلت الشيوعية من السواد الأعظم من العمال على فاقتهم بسخرية ، حتى لقد استعانت بالأموال ، لتفتنهم فتونا ، ولكنها اخفقت إلا قليلا ، وراحت تلتمس من هذا الميدان بديلا ، وتنتقل إلى معارك أخرى وميادين .

وقد سنحت الفرصة للدين ، وتواتت الناهزة لا هله، لأن تعاليمهم إذا انبعثت عن قوة الإيمان ، وسطوة العلم ، وسلطان الإحاطة بالمشاكل الاجتماعية وأسبابها ووسائل علاجها ، كفيلة بأن تؤدى رسالة الدين كاملة .

ولو أن الدين نهض لتأديتها كعمل ، ولم يكتف بها كنظرية ، أو مجرد عظة ، ومحض تعليم ، لما ترك للشيوعية شيئا تهيج له ، أو تتلمس فيه سببا للفتنة وإشاعة الاضطراب فى البلاد .

الشيوعيون ملاحدة .... والحياة الحديثة تطلب مؤمنين .

نريد إيمانا من طراز جديد ، وبنا حاجة إلى معلمين هداة عمليين وهذه هى مشكلة الكفاح حيال الشيوعية والشيوعيين .

الفصل الرابع عشر

التنظيم

وقد طالما وُصِف الشيوعيون بأنهم أبرع «المنظمين» والأساطين فى فن التنظيم ، فقدر أيناهم يستحدثون أساليب تلائم كل شىء ينشدونه ، ويبتكرون وسائل وفق مشتهياتهم ، ويستخدمون أفانين عجيبة فى سبيل تعزيز « قضيتهم » ، والتسلل بسحرهم الخفىّ إلى النفوس .

وكانت النقابات فى بلدان الغرب هى الهيئات التى داروا باعينهم إليها ، وحشدوا قواهم لإحداث نفوذ فيها ، حتى كادوا يظفرون فى الصناعة والحركة النقابية باعجب سلطان ، وأوشكوا بهذا السلطان أن يجدوا عدة وسائل للاذى وخلق شر مستطير ، وقد تتواتى لهم احتمالات كثيرة لا ندرى ماذا سيكون غدا مداها ، إذا هم استطاعوا التوسع فى الدس والتدمير والتخريب .

وليس من الحكمة فى شىء أن نعمد إلى التهوين من الخصم ، وأن نقنع بأن الإسلام أو المسيحية ، أو الموسوية ، فى مناعة من الخطر ، لأن تعاليمها تتنافى والشيوعية ، أو تناقضها ولا من السداد أن نحسب الشرق من شرها محصنا ، وأنه لا يمكن أن يكون لها مرتعا ، ولا أرضا خصيبة صالحة ، فنسكن إلى مجرد الدعاية كلاما ، ونطمئن إلى الفتنة الخافية منزلا ومقاما .

ولكن الحكمة والسداد أن نقابل التنظيم الشيوعى البارع ، بتنظيم لا يقل عنه براعة ، إن لم يفقه حذقاً وتنسيقا .

انظر إلى الشيوعيين ... إنهم يوجبون على كل فرد منهم أن يبدو وسط الجماعة التى تعيش فيها ، والمؤسسة التى يعمل عندها ، والنقابة التى ينتمى إليها ، عضوا محبوبا ، وفردا لا عليه فى أعين الآخرين من بأس ولا سوء ، وإن هؤلاء ليعملون بالأمر ، وينزلون على تعاليم الحزب طائعين ، ويصيبون النجاح فيما هم بسبيله ، فلا ينكشف منهم إلا معاشر الدعاة المتهورين ، ممن غلبتهم الحماسة النزقة ، والحمية المستخفة ، وأعجزتهم حيل الشرطة فى مطاردتهم ، وأعوزتهم الأساليب الهادئة

الخافية فى إحكام التسلل والنجاة من أعين المراقبين والمتعقبين .

وليست هذه المحاولات « الفردية » التى قد يحبطها الشرطة إلا وسائل تقتضيها « الظروف » ، ولا بد فى مثلها من الخسائر العارضة ، والوقوع فى الفخاخ ، أو الاستياق إلى المعاقل ، أو الزج بالضحايا فى غيابات السجون ، توطئة للعمل « الجماعى » عندما تتوافر القدرة عليه ، وتتهيأ مطالبه بعد حين .

ولن يثنى استهداف الضحايا للاعتقال والعقاب النظام الشيوعى ذاته عن سد الثغرات ، كلما بدا شىء منها فى الصفوف ، لأن « التضحية » عندهم فى رأس مطالب الإيمان به ، وقد تستحيل الضريبة عند المؤمنين إلى إغراء ، وكلما لاقى المؤمنون بفكرة عذابا ، استحماهم العذاب إلى مضاعفة الجهود ، وزيادة الإقدام ، وارتفاع موازين الإنكار الذاتى والاستبسال ، وإذا كان فى كل منظمة من المنظمات ، أناس لا تتجاوز قدرتهم الطبيعية القناعة بالعمل الهين ، والشغلة اللينة ، والمهمة اليسيرة فلا يتقدمون إلا لتأديتها ، فإن هناك آخرين لا تستخفهم إلى العمل ، ولا يجلسون إلى العظائم والفعال الجسام جلسة المتفرجين .

أما فى الشيوعية فليس ثمة رجل يقنع بعمل هين ، وليس ثمة فرد فيها يرضى الجلوس لينظر ويرى ، وقد وفق الشيوعيون فى تسمية أوكارهم « بالخلايا » لزحمة النشاط فيها ، وإقبال كل فرد على مهمته وانهماك كل عضو فى شلته ، حتى كأنهم النحل عملا ونسقا ونظاما مكينا ..

وليس أحد فيهم بقانع أن يؤدى العمل إبراء ذمة ، وإنهاء شغل ،

وصدعا بالأمر الصادر إليه ، ولكن كل أحد منهم يأبى إلا الإجادة فيه ، ويصبر على إحسانه ، ويتوخى أسباب إتقانه ، ويجاهد فى الانتقال منه إلى عمل أخطر شأنا ، ولا يكف عن التطلع إلى الذروة فى استكمال مطالبه وتحسينه .

وكثيرا ما يبلغ القمة منهم الباذلو النفوس فيه ، فيصبحون زعماء لعشرات الألوف ، وقادة فى أكبر المصانع ، وسط بيئات غير شيوعية ، فيكون لهم فى فترة قصيرة النفوذ الظاهر ، والسلطان المبين ، فيتيسر لهم عندئذ خدمة مبادئهم وتعزيز جانب حزبهم ، وإن لبث أكثر الذين من حولهم لايدرون حقيقة أمرهم ولا يشعرون .

وليس للشيوعى شأن بتناول النقابات وحركاتها فى سبيل تحسين أحوال العمال وإصلاح بالهم ، وكفالة الضمانات لهم فى عقود تشغيلهم ، لأن هدفه الأوحد هو « الاستيلاء » على المؤسسة وإضفاء سلطانه على أفرادها ، وتحويلها على الأيام إلى سلاح من أسلحة الحرب « الطبقية » وأداة من أدواتها ، والاستعانة بالصناع والعمال على تقريب اليوم الذى تقوم فيه حكومة شيوعية ، فلا تصبح النقابات تحتها إلا أدوات طيعة فى يد الدكتاتورية الشعبية تصرفها كيف تشاء .

هذا هو التنظيم المثالى الذى تهيأ للشيوعية فى هذا الجيل ، ولا يقابله فى أكثر البلاد التى تسللت إليها ، أو بدأت تمد العين نحوها ، وتحاول جاهدة التسرب إلى صفوف عمالها ، شىء على غراره ولا بعض مظاهره وبوادره ، فإن أكثر ما تفعله الحكومات لا يعدو مجهودا

« بوليسياً » يقتصر ميدانه على المطاردة ، ولا يتجاوز حدود الرقابة والتعقب ، فلا تخسر الشيوعية سوى أوكار فى الفينة ، أو شبكات متناثرة من حين إلى حين ، وكلما خسرت خلية ، قامت خلية ، أو طلبت المزيد .

أما الشعوب ذاتها ، بما حوت من جماعات وقامت بينها من ندوات وتكاثر فيها من قادة ، وأصحاب رأى وخطباء أفذاذ ، وكتاب لهم على الناس سلطان ، فهى خلاء من السلاح الماضى الذى يستطيع أن يحارب فى هذه المعركة الخطيرة ، والجولة الرهيبة ، وهى فى عوز إلى نظام مماثل وخلايا متشابهة ، وتنسيق يحاكى ذلك التنسيق إن لم يتجاوزه قوة وإحكاما وإتقانا ، بل لايزال ينقصها « الإيمان » الجديد الذى يحرك الجبال ، ويوقد الروح ، وينظم المعركة ، ويدفع إلى حومتها بمجموع المحاربين والمكافحين .

وقد تبين لنا أنه كلما أقيمت حواجز فكرية لوقاية الناس من هذا الخطر المستفحل ، ووضعت التدابير لدرئه أو منعه من التفاقم ، وهيئت أساليب لمكافحته ، استطاعت الجماعة أن تطمئن ، وأمنت أن يدهمها الشر بياتا ، ولم تعد تخشى غوائله الجائحة .

إن موقف الناس من الشيوعية اليوم فى كل قطر من أقطار هذا العالم يستوجب « التعبئة » العامة ، حتى يقف الأحرار المتطوعون كالسافة فى جيش المؤمنين ، خلف الخطوط الأولى من المحاربين والفدائيين

ولا يمسك الشيوعية اليوم غير قيام « فدائية » فى أوساطها ، وجنود عاصفة بين الموقنين بها والمتفانين فيها ، وما أحرى العالم

الحر — كما يطيب لكتابه وساسته وزعمائه أن يسموه — أن تكون « الفدائية » فى معركة الإيمان طلائع كتائبه ، وجنود العاصفة فى مقدمة جحافله وفيالقه، فإن دحر الشيوعية غير مستحيل، إذا اتفق العالم الحر على مواجهتها ، ونهض الدين كإيمان ، لمقابلة تحديها ، وانتظم البشرية كلها « اتحاد » عام ، يعمل بأسلوب واحد ، ويناضل على طريقة معينة ، وتجمعه أحاسيس واحدة ، وتتولى تنظيم كتائبه قيادة عالمية ، تعتمد على الروح وتركن إلى قوة الدفاع عن المصير .

ولن يتواتى للعالم الحر أن يهزم هذه الشيوعية « الصبور » الوئيدة ، المطمئنة الأكيدة ، المغلقة الغامضة ، المحجبة المقنعة ، إذا ظل الغرب ماضيا فى دعاياته الكلامية ضدها ، والتهم الطنانة الرنانة التى يرميها بها ودعوى رغبتها فى تهديد السلام التى يدعيها ، وخشيته المتفاقمة من تسللها إلى الشرق واجتياحها ، إذا لبث الشرق كما نرى يهز كتفيه لهذه « المناورة » السياسية التى تريد أن تميل به إليها ، وتتوعده الشر إذا هو مال عنها ، وإذا هو ظل يجعل من هذه النذر والحيل والأحابيل « ذرائع » للمساومة ، وتهديدا سافرا بالالتجاء إلى المعسكر الآخر الغامض المرهوب .

ولن يتيهأ للغرب والشرق شىء من النجاح بهذه الوسائل ونحوها ، لأن الشيوعية إليها فطنة ، ولمدى أثرها مدركة ، وكلما عرفت منها جزءا احتالت حيلتها لتفسده على مدبريه لأنها أكثر منهم حرصا وأشد منهم يقظة وسهراً ، وأعجبهم احتياطا لإخفاء ما لديها من الأساليب ومقتضيات النضال .

لقد اصطلحت قوات الشيوعية اليوم على تحدى البشرية غير المؤمنة بها ، ولم تنهض هذه البشرية بعد للتأهب لها ، ولم تجمع قواتها لمقابلتها، بل اقتصر همها على الناحية السياسية منها، فيما نشهده من أعراض « الحرب الباردة » ومظاهرها ، وهى حرب تحشد الشيوعية من أجلها أغرب الطرق ، وأحوط الأساليب .

ولن يجدى هذا كله خيرا ، لأنه يكسب الشيوعية الوقت ، ويضيعه على غير الشيوعيين ، كما يكسب أنصارا ، ويفقدهم هم على الأيام مؤيدين ومناصرين .

وقد يعيش الناس اليوم على أمل واحد يساور نفوسهم ، وأمنية سقيمة بليدة تداعب منهم الأخلاد ، وهى أن الذين أمسوا للشيوعية عبيدا إن كانوا أمما ، أو كانوا أفرادا ، قد يثورون لحريتهم ، فيلتمسون التحرير من الاستعباد ، وكسر الأغلال وتحطيم الأصفاد .

ولكن لا يصح أن ينام الناس على هذا اللحن مطمئنين .

إن الشيوعية تزحف ، وتوطد لقدميها ، والناس وقوف فى مكانهم لا يريدون تقدما للقاء هذا الزحف قبل أن يطم عليهم بوطأته فلا يستطيعون لدحره سبيلا ، أو ينقلبون مدحورين .

الفصل الخامس عشر

الجواب الروحى

الخطر الشيوعى إذن قائم ، والغرب لمداه مدرك ، ومحاولته درءه مستمرة ، والدعوة ضده لا تنقطع ، وكل ما يتسرب منها إلى ما وراء الجدار الشاهق الذى يحجب الشعب الروسى ذاته هو سلاح أقوى من القنبلة الذرية وأشد مضاء ، لأنه سلاح يراد به أن يصل إلى الأذهان لينشىء لا ليدمر ، ويقيم لا ليهدم ، ويزيل هذا المذهب الخيالى الذى لا تستطيع قوة فى الأرض أن تعالج تحقيقه بغير العسف والبغى والطغيان.

الغرب أبدا متوجس مكافح ، لأنه يحس حياله قوة وحلما بديعا ، وخيالا مختلبا ، والناس إن لم تخفهم القوة ، خلبهم الحلم ، وغرهم الخيال البديع ، فلا معدى للغرب عن التوسل إزاء القوة بمثلها أو أشد وحيال الحلم عن حقيقة أنفذ فى الأذهان وأسد ، وتجاه الخيال عن حجة تصيب من الوهم الكبد ، ولا يزال الغرب مع هذه النجدات التى يستعينها ، فى قلق مساور ، وخوف مقيم .

أما الشرق فما برح يستمع إلى الوسواس ذاهلا ، ولا ينهض للمقاومة محاولا ، ولا تزال تراوده « المغامرة » حتى ليخطر له الوقوف بمعزل ، والالتجاء إلى « الحياد » كأنما الحيدة منجية من الخطر ، فى معترك رهيب لن يؤخذ أحد فيه برحمة ، ولن يرد الحياد جوائح المجتاحين

وقد تعوزنا القوة التى يتطلبها الكفاح حيال الخطر كلما اقترب ، والوهم المداعب إذا تغلب ، ووسواس الحلم الجديد إذا ظل يملى فى

أسماعنا من سخره ويسكب ، ولكن أما حان أن نلتمس الأساليب النفاذة المجدية لتحصين أنفسنا منه ، وحشد عدة الإيمان الصادق بأن مصيرنا رهن بتنظيم بيتنا ، ودعم كياننا ، وإزالة الأسباب التى تركن الشيوعية إليها ، فى استغلال ما نشكو من ظلم ، والانتفاع بما نعانى من فاقة ، وما يوشك أن يدمر صحتنا من أمراض وأدواء .

لقد اسلفنا عليك حديث الوسائل التى ينبغى أن نحشدها لتقوية جبهة الكفاح وتنظيم الدعوة إليه ، والحاجة الملحة إلى إيمان جديد يدفع بنا نحوه ، وهداة مؤمنين أقوياء يهدون لعمل عظيم ، ونضال مكين

ويوم يتوافر الإصلاح الاجتماعى من مختلف نواحيه ، ويستكمل التنظيم المنشود للكفاح الفكرى عدته ومعانيه ، ويجتمع لنا تنسيق البيت ، وتنسيق الجهد ، نستطيع أن نواجه الشيوعية بقوة الفكر والروح ، ونفسد عليها أساليبها ، بمواردنا النفسية من الصبر والروية والتدبير .

ولكن الرد القاطع الحاسم الطويل المدى على نشاط الشيوعية ونفوذها هو « الجواب الروحى » فاذا لم يتوافر لنا هذا الجواب لم تكن الوسائل والأساليب الأخرى سوى وسائل وأساليب موقوتة ، عابرة غير حاسمة ولا جازمة ، وقد يعود « التحدى » مرة أخرى ، على مر الوقت ، حتى وإن واجهنا أولا هزيمة ظاهرة .

وليس الجواب « الروحى » الذى نعنيه غير سد حاجتنا الملحة إلى مؤمنين يفهمون إيمانهم كما يفهم الشيوعيون مذهبهم وعقيدتهم ، إذ لا يكفى اليوم أن يكون لنا هذا الإيمان ، بل ينبغى أن نتعمق أيضا فيه ، ونتغلغل فى جوهره ، ونستمد منه الحافز الدافع إلى الجهاد فى سبيله .

وهذه الحاجة القصوى ظاهرة لكل مؤمن يتنقل فى المصنع ، أو يطوف المجامع ، أو يتحدث فى الندوات ، لأنه لا يلبث أن يدرك مبلغها ويكشف وشيكا أثرها ومدى البدار إلى سدادها وتوفية مطالبها العاجلة .

إن الشيوعى فى كل جماعة ، وكل بلد ، ينفق الساعات بعد بذل فراغه لفكرته ، فى دراسة النظريات الماركسية ، والخطط والبرامج والحجج الشيوعية ، لتكون لدية الردود على كل سؤال جاهزة والأجوبة عن كل استفسار مهيأة عاجلة .

وقد أصبحنا نعيش فى زمان جد وحرج وخطر ، تواجهنا فيه الشيوعية عند كل منعطف ، ويطالعنا تحديها من كل ناحية ولن يتوافر لنا الرد عليه إلا بالمعرفة ، والفهم ، والدرس ، والتمحيص أما الاستخفاف بهذه المطالب الأساسية لمكافحة الشيوعية فمن شأنها فى الغالب الاستهداف للخذلان ، أو الوقوع فى الفخ المنصوب ، كما وقع فيه قوم كثيرون وهم لا يشعرون .

وليس من شك أيضا فى أن مجرد العلم بالدين وأصوله لا يكفى مطلقا ، فقد تكون فيها فقيها ، ولدقائقها مستظهرا ، وفى معضلاتها شارحا مبينا ، أو حكما قاضيا ، ولكنك مع هذا العلم الغزير كله تظهر سقيما إذا جلس الناس اليك ، ضعيف الأثر فى النفوس إذا استمعوا لحديثك ، محتاجا إلى قوة الإيمان التى تخلب الخاطر ، وشفافية الروح التى تتملك العقل .. وتأسر اللب .

إن فهم الدين والدفاع عن مبادئه يستوجبان أن تعيش عليه ، وتحيا

فى صميمه ، وترسل سلطانه فيمن حولك ، وقد يكونهم من مجافاة المنطق أن تحكم على مبلغ أصالة عقيدة أو بطلانها بمدى طاعة هداتها ، وزعمائها لأوامرها ونواهيها ، أو حد فسوقهم عن طاعتها ، ولكن هذا هو فى الجملة إحساس الناس وديدنهم ، وقد يشهدون واحدا منهم أو نفرا قليلا ممن على شاكلته فيكون الحكم عليهم فى هذه الحالة ظلما للعقيدة ذاتها ، وبغيا واتهاما بغير الحق للأكثرين ، وإن كان المثل الطيب الواحد كافيا لإنصاف العقيدة والإحسان إليها كل الإحسان .

لقد أمسينا فى جيلنا هذا أحوج ما نكون إلى القديسين والأبرار ولكن القديسين الذين نريدهم يجب أن يكونوا من طراز جديد ، لا لقضائهم الحياة فى العبادة ، ولا لأنهم الصوامون القوامون العاكفون فى المساجد ، ولا لأنهم « مكورو » العمائم ، العادّون على أناملهم حبات المسابح ، الحجيج إلى أرض الله المقدسة وبقاعها ، وإن كان لهذا كله فضله ، وخطره وشأنه ، وإنما نريد قديسين أبراراً فى المصنع ، والنقابة والجمعية ، والهيئة ، والندوة ، والمحفل ، قديسين من الذين يعيشون فى هذه جميعا ونحوها فوق مستوى الذين يحيطون بهم ، ويتقلبون بين ظهرانيهم ، ويقومون « كالإعلان » الحى عن التعاليم التى يبثونها والدين الذى يتحدثون باسمه ، والفكرة التى يكافحون عنها مخلصين صادقين .

وفى أيدى المتدينين على بكرة أبيهم مسيحيين أو مسلمين ، أو إن شئت قل فى أيدى الملايين الذين قد يشعرون أحيانا بأنهم بمنأى عن هذا النضال الذى يستوحيه الخطر الماثل ، وتقتضيه مواجهة التحدى

الظاهر سلاح مرهف النصل ، سلاح « التقوى » والعبادة ، وهو سلاح لا يستطيع الشيوعى المتهجم الملحد النزاع إلى العدوان أن يستخدمه ، ولا يملك عنه جوابا وليس بمثله يدان .

ولسنا نطالب المتدين التقى العابد بأن يهزم الشيوعى ويدحره كشخص ، أو فرد ، أو خصم محارب ، وإنما يكفى أن يهزمه ويدحره كصاحب فكرة آثمة ، ورأى باطل ، وقد يتواتى له بهذا النضال الروحى أن يرده عنه ، فهو اذن سلاح لا ينبغى للمؤمن أن يضعه فى غمده ، وإنما ينبغى أن يستعين به أبداً .

وقد علمنا التاريخ أن « الوثنية » والكفر والزندقة طالما طرقت أبواب الإيمان غازية مهاجمة تطلب العدوان ، وأن أهل الدين الحق ، وأسلوب الحياة الذى اشترعه ، طالما تنادوا إلى الذود عنه ، وحشدوا جموعهم الكفاح .

وما أحوجنا اليوم إلى هذه « التعبئة » .

لنحارب هذه الشيوعية ، أو « الوثنية » الجديدة .

لقد هوجم الدين ، فلا معدى عن حمايته .

ونحن نعيش فى أيام خطر ومحنة وقلق ، وهى أيام تقتضى تضحيات من جانب الذين يرون الخطر دانيا .

ولكنها أيضا أيام فرص كبيرة ونواهز سانحة ، لأن تلك الأفكار الضالة التى غابت على العقل البشرى قديما ، وبلبلت الأجيال الغابرة ، عادت اليوم فى عهدنا هذا وزماننا تتمثل فى الشيوعية لتجد من المؤمنين أصدق المكافحين .

نحن اليوم نواجه « البعث » ، لأن الدين ينبغى أن يولد من جديد ولكن كم من أهله ينظرون إلى الأمر هذه النظرة ، وكم منهم أوتوا الحماسة ذاتها التى أوتيها معاشر الشيوعيين وكم منهم يرون وجوب إعادة التنظيم ، والأخذ بأسباب الإصلاح ، واستخدام أحدث الوسائل فى النضال والكفاح . . ؟؟

إن الجمود ، والتهاون ، وترك الأمر على ماهو ، يبلغ مبالغ « الجريمة » ، ويدنو من حدود الخيانة للبشرية النافرة من الوهم الحديث الذى يصور للناس « تهاويل » ، ويرسم لهم أجمل الأحلام .

ما أحوجنا اليوم إلى مؤمنين مدربين على « الفدائية » تدريبا ، مقتنعين بوجوب استخدام « النسلل » وأساليب القناصة كل الاقتناع بل ما أحوجنا إلى زعماء مسلحين بالعلم ، والدربة ، والحنكة ، والروح العملية ، لينزلوا إلى الحومة مجاهدين ، بالدعوة إلى الدين على نحو ماتستوجبه حاجة القرن العشرين .

نريد أصحاب صناعات ، وأرباب أعمال ، ومالكى مؤسسات ، يتزعمون طبقتهم بقوة القدوة والأسوة ، والمثال ، ويتقدمون بها إلى فهم جديد لحقوقهم وحدود تبعاتهم ، على ضوء الإيمان الصحيح ، والعدالة الاجتماعية السامية ، وإزالة جميع أسباب النزاع بين الطبقات

نريد عمالا ، وصناعا ، يتخذون من الإيمان دوافع جديدة إلى أنظمة « عمالية » قائمة على أسس الدين ، لا على تعاليم الماركسيين .

نريد عمالا ، يتقدمون إلى تطهير أنفسهم من كل أدران « الوثنية » الجديدة ، وسائر الأفكار المضللة التى غيرت نظرتهم إلى الحياة ليحيوا حياة نقية فى المصانع والنقابات .

نريد زعماء روحيين قادرين على زعامة تمكن الدهماء من القول والعمل كهيئة موحدة فى المبادىء ، متماسكة بقوة الإيمان ، واضحة المناهج والاتجاهات .

إن أكبر ما يعيب أهل الدين فى بقاع الأرض جميعا أنهم لا يدركون مدى قوتهم ، ولا مبلغ سلطان أديانهم ، فإذا هم أدركوهما ، وجدت الشيوعية يومئذ متحديا قويا لا يباليها ، وجهادا صادقا يزدريها وبأساً شديداً يرد أصحابها مدحورين .

فعلى معاشر المؤمنين تقع تبعة جديدة ، وهى إقناع هذا الجيل الموسوس المتشكك بكلمة الإيمان ، وقوة الإصلاح ، وسلطة الدين .

وعليهم أن يلتمسوا حاجة العصر إلى العدالة ، والمساواة ، والنظام الذى يتوافر فيه الرفق والنصفة ، والحريات العامة ، ليجمعوا فى نضالهم بين حب الإنسان ، ومحبة الله .

وعليهم أن يتقبلوا راضين تبعات الذين يحيون فى هذا العصر المادى الأثيم ، ليحاربوا الشر أينما وجدوه ، ويدفعوا الأذى حيثما شهدوه ، وليأخذوا أنفسهم بالتقى والورع ، والمعدلة ، حتى يستطيعوا بالقدوة الشخصية أن يضربوا فى جذور فكرة مستحدثة جاء بها عصر ملحد مجرد من الإيمان .

ويوم نهزم الشيوعية بهذه الأسلحة المرهفة ، لا ندحرها وحدها بل نرد إلى الدين سلطانه ، وإلى العدالة منارها الوضاح ، وإلى النظام البشرى كيانه الصحيح .

بيان الموضوعات

	صفحة
تصدير	٣
مقدمة	٥
١ — الشيوعية فى الإسلام	٧
٢ — الشيوعية وسر جاذبيتها	٢٢
٣ — « ليست مشكلة اجتماعية	٢٤
٤ — أحزاب الفقراء	٢٧
٥ — روح المخاطرة	٣١
٦ — خطر عام	٣٥
٧ — المسافرون مع القافلة	٣٧
٨ — الدعاية الناشطة	٣٩
٩ — ذهب المعز !	٤١
١٠ — الأسرة والبيت	٤٤
١١ — الكره والحب	٥٢
١٢ — ردود إيجابية	٥٥
١٣ — رسالة الدين	٥٨
١٤ — التنظيم	٦٥
١٥ — الجواب الروحى	٧٢

دار النيل للطباعة
ت ٥٨٨٥٥

DATE DUE

335:H131sA:c.1
حافظ ،عباس
الشيوعية في الاسلام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01019925

335
H131sA

335
H131s A
c.1